

## **الباب الثالث**

**مقومات شعر الفتوح وطوابعه**



## الفصل الأول

### شعر الفتوح

#### أنواعه وموضوعاته

##### ١- قصيد ورجز

نحن أحوج ما نكون هنا إلى أن نتذكر ما قدمنا من وصف لتحركات الجيوش، وعنّف المقاومة وأهوال القتال، وما كان يشغل المحاربين من التحول الدائم والحركة الدائبة، وما كان يملأ نفوسهم من مشاعر الأمل والخوف والقلق والغبطة، وغير ذلك من إحساسهم بالوجل والاعتراب، وما يمكن أن يتعرضوا له أمام عدو باطش، في أرض بعيدة عن أرضهم وعن ذويهم.

حقا كانت فكرة الجهاد تجذبهم بألقها، وتدفعهم إلى استرخاص أرواحهم في سبيلها، مؤمنين بنصر الله وبما وعدوا من الجنة وحسن المآب، ولكن العواطف الإنسانية المختلفة لا بد أن تثير فيهم هذه المشاعر، في مثل هذا الموقف الرهيب.

ومهما كانت مشاغل الفاتحين واهتماماتهم عظيمة وضخمة، فإنها لا بد أن تضيق عن استفاد مثل هذه المشاعر، ولا بد أيضا لهذه المشاعر أن تجد منفذا تتسرب خلاله طاقاتها، فيفرج عن الفاتحين بعض ما تزخر به جناتهم، ويعبرون فيه عن هذه العواطف وتلك المشاعر.

وقد استفد التعبير الشعري كل هذه الطاقات النفسية واستوعبها، إذ انطلق الشعر على كل لسان، وقدمت الفتوح بانتشارها وتمدها لهؤلاء الفاتحين مادة هذا الشعر في أحداثها، وما تثيره من أحاسيس في هذه البيئات الجديدة، وما عانوا فيها من ابتعاد عن بيئتهم.

وقام الشعر بهذه المهمة خير قيام، وإن طبع بطوابع أملت عليها الظروف القاسية للمعارك وتلاحقها وعنّفها، فاتسم بخصائص معينة في شكله ومضمونه.

ومن اليسير أن نتبع أنواع هذه المنظومات، وأن نجتمعها في نوعين كبيرين من حيث الشكل الفني، وهما: القصيد والرجز. فمع أن الرجز ليس إلا وزنا من أوزان

الشعر، وليس له قالب مستقل بذاته، إلا أننا نميل إلى جعله نوعا مستقلا من أنواع التعبير، لمخالفته للشعر في شكله العام، وفي اقتصاره على أبواب معينة وموضوعات بذاتها، فضلا عن تميزه بدور كبير في ظروف القتال، لم يتسن للشعر، في التحميس ورفع روح المحاربين، إلى جانب أن الرجز لسهولته وقربه من السليقة العربية كان سبيل الشعراء المغمورين، الذين أنطقتهم الفتوح، وهم كثرة كثيرة. بينما كان شعر القصيد سبيل الممتازين من الشعراء، وإن كان لم يحتفظ بخصائص الشعر العربي التقليدية، فأضحى مقطعات قصيرة قليلة عدد الأبيات.

وفي الحقيقة: إن شعراء الفتوح جميعا قد خضعوا خضوعا متماثلا للطوابع التي طبعت بها الفتوح شعرهم جميعا، فضلا عن تركيز اهتماماتهم ونوازعهم في المسئولية الضخمة التي يحملونها فإن ظروف القتال وقسوة الحياة تحت ظلال السيوف لم تكن لتعينهم على التنفس الغنائى الهادى، والتعبير الوجدانى المناسب، فى قصائد متأنية مديدة النفس.

ولهذا كان تنفسهم سريعا لاهئا ومتلاحقا، وخاطفا ومحدودا فى مضمونه وفى شكله بطبيعة الحال، فاتخذ القريض شكل المقطعات القصيرة. واستبج هذا الإطاحة بمقدمات القصائد التى تعتبر من أهم تقاليد الشعر العربى، الموروثة عن العصر الجاهلى، والى ظلت تحكم الشعر ردحا من الزمان، ولم تفلح الثورات الأدبية فى الإطاحة بها بعد ذلك.

ومهما كان رأى الباحثين فى هذه المقدمات الطللية والغزلية من أنها ترتفع بالشاعر إلى بيئة شعرية رفيعة يخرج فيها عن أطوار الحياة الواقعية المادية إلى عوطف الحنين والشوق مما يعده للغناء<sup>(١)</sup> فإن الشاعر كان يجد فيها بلا ريب متنفسا للحديث عن ذاته، وإشباعا لمنازعه الفردية، قبل أن يشغل بغيره الذى كان ينصرف دائما إلى الفناء فى وجدان القبيلة بحكم وضعه الاجتماعى.

والأمر مختلف فى الفتوح، فليس هناك ما يدعو إلى أن يختلق الشاعر فى مقدمات قصيده، ما يكون مسريا لفرديته، إذ ليس هناك حرج فى أن يشيد الشاعر

(١) حديث الأربعة ج ١ ص ٢٢.

بذاته، ويعبر عن فرديته داخل إطار الجماعة الإسلامية تعبيراً حراً، دون التجاء إلى المقدمات التي لا بد أن تشغله في مثل هذه الظروف المضطربة السريعة الأحداث عن التعبير المباشر.

وكما تخفف شعر الفتح من المقدمة الغزلية والطلبية تخفف بالضرورة من النظام التقليدي للقصيد الذي ساد في الشعر العربي، وأوصى نقدته باتباعه والتمسك به قروناً. هذا النظام الذي يوجب تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة، فتبدأ بذكر الأطلال، ثم يتقل الشاعر منه إلى النسيب فوصف رحلته وما يعترضه فيها، ويصف ناقته التي تقله، ويشبهها بما يشاء من الحيوان، حتى يصل إلى غرضه من المدح أو غيره.

وذهب بعض نقاد العرب مذهباً متعسفاً في تعليل حسن هذا النظام والدعوة إليه من ثم والتوصية بالتمسك به والمحافظة عليه، ففي رأيهم: أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربيع والدمن والآثار، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كانت نازلة العمدة في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلاً، وتبعهم الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الشوق والصبابة، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعى به إصغاء السامع إليه، لأن التشيب قريب من النفوس، لائتط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، أو ضارياً فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب، والسهر، وسرى الليل، وحر الهجير، وانضاء الراحلة والبعر. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكارة في السير بدأ في المدح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل<sup>(١)</sup>.

ومن ثم: يلزم هؤلاء النقاد الشعراء بأن يسلكوا تلك الأساليب لا يتعدونها، وأن يعدلوا بين أقسامها، ولكن أنى للشاعر المحارب في أى زمان ومكان أن يصنع هذا، وأن

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢١.

يزيف مشاعره بهذه الصورة المعقدة، وهي على طرف لسانه يريد أن يلقي بها تلقائيا وبطريق مباشر، دون أن يجعل بينه وبين غرضه الملح هذه الحواجز المتدرجة، وتلك المراحل المتسلسلة.

إن الشاعر المجاهد ليريد - قبل أن يشعر أنه يريد - أن ينفص ما بنفسه ابتداء دون تقيد بتقاليد أو تمسك بنظم في التعبير، إلا ما يفرضه طبيعة الإحساس النفسى، والحالة الشعورية التى تتقمصه.

ولهذا فلن نجد بين شعر الفتح كله قصيدة واحدة تزيد أبياتها عن عشرة أبيات، ولن نجد قصيدة تشتمل على أكثر من غرض واحد إلا فيما ندر، فكل مقطوعة تستقل بموضوع واحد. يعبر عنه الشاعر هذا التعبير المندفع السريع.

وأدى هذا إلى جانب انطلاق الشعر على ألسنة الكثيرين من الفاتحين العاديين إلى أن يكثر الرجز، وأن يفك عن وظيفته التى كانت له فى الجاهلية كأداة للتحميس، وشحن القوى وإلى أن يشارك القصيد فى التعبير عن بعض موضوعاته التى تخرج عما ألفه الرجز فى الجاهلية، من الحرب والمفاخرة والحذاء فكاد يكون قسيم الشعر القصائدى، وإن ظل فى شكله ومضمونه لا ينم عن إعداد أو عناية، نتيجة قربه من السليقة الفطرية للعرب، وارتجاله فى المواطن المختلفة، وإن ظلت له نفس المهمة فى التحميس. وسوف نرى أنه لم يقصر عن خوض الموضوعات التى خاضها الشعر إلا فى القليل الذى لا يتفق وإيقاعه العنيف.

## ٢- موضوعات قديمة متطورة

تغنى الشعر كما تغنى الرجز بموضوعات بعضها قديم تداوله الشعر العربى على اختلاف عصوره كالحماسة والثناء، وبعضها الآخر جديد، لم يعهده الشعر العربى قبل الفتح. فشعر الجهاد وإن جال فى تصوير ظروف الفتح الجديدة فإننا لا نستطيع أن نعهده بابا جديدا من أبواب الشعر، وكذلك الرثاء، إذ إن لهما جذورا فى الشعر العربى ثابتة، وغاية الأمر أن هذه الظروف الجديدة قد كست هذين اللونين من الشعر صبغا جديدا، فتطورا قليلا، وإن دلا على تأثيرات جديدة فإن أصلهما واضح جلى فى الشعر العربى.

ونعنى بشعر الجهاد: ذلك الشعر الذى يهدف إلى الإشادة بما كان من إقدام الجند أو الكتيبة أو الشاعر، أو صديق له أو زميل، أو قائده أو عدوه. وعن كل هذه الطرق يعبر الشاعر عن قسوة المعارك، وضراوة القتال، وشدة اللقاء، وما كان يحدث فى أثناء المعارك من إقدام أو إحجام، وما قد تنتهى إليه من نصر أو هزيمة، وما يكون بعد ذلك من فخر أو تصميم على الثأر والانتقام، بينما قد يكون تصوير المعارك وما تشتمل عليه طريقا إلى الإشادة بالنفس أو بالغير، وهكذا.

وهذا الموضوع هو أكثر موضوعات الشعر التى بين أيدينا ترددا واتساعا، ومن أمثلة هذا الشعر الذى يشيد ببلاء الجماعة الإسلامية ورسالتها وإيقاعها بالعدو قول خليل ابن المنذر فى يوم طاووس:

بطاووس ناهبنا الملوك وخبيلنا      عشية شهرآك علون الرواسيا  
أطاحت جموع الفرس من رأس حائق      تراه كمّوار السحاب مناغيا  
فلا يبعدن الله قوما تتابعوا      فقد خضبوا يوم اللقاء العواليا<sup>(١)</sup>

وقد يجعل الشاعر تصوير المعركة سبيلا إلى تصوير بلائه والإشادة بنفسه، كقول نعيم بن مقرن، قائد المسلمين فى وقعة واج روذ بهمندان، التى تصدّى فيها «الموتا» قائد الفرس ونكل به تنكيلا - قال:

لما أتانى أن «موتا» ورهطه      بنى باسل جرّوا جنود الأعاجم  
نهضت إليهم بالجنود ماميا      لأمع منهم ذمّتى بالقبواصم  
فجئنا إليهم بالحديد كأننا      جبال تراءى من فروع الغلاسم  
فلما لقيناهم بها مستنيفة      وقد جعلوا يسمون فعل المساهم  
صدمناهم فى واج روذ بجمعنا      غداة رميناهم بإحدى العظامم  
فما صبروا فى حومة الموت ساعة      لحد الرماح والسيوف الصوارم

(١) ياقوت ج ٢ ص ٤٩٤.

كانهم عند انبثاث جموعهم  
أصبنا بها «موتا» ومن لفّ جمعه  
تبعناهم حتى أروا في شعابهم  
كانهم في واج روذ وجوه  
جدار تشظى لبنة للهوادم  
وفيها نهاب قسمة غير عاتم  
نقتلهم قتل الكلاب الجواحم  
ضئين أصابتها فروج المخارم<sup>(١)</sup>

وقد يشيد الشاعر بنفسه مباشرة، فيصور شجاعته وبأسه وفعاله بالعدو وتفريجه  
كرب المسلمين كما فعل عروة بن زيد الخيل الطائي، فقال في معركة نهاوند:

ألا طرقت رحلى وقد نام صحبتى  
ولو شهدت يومى جلولاء حرينا  
إذن لرأت ضرب امرئ غير خامل  
ولما دعوا يا عروج بن مهلهل  
دفعت عليهم رحلتى وفوارسى  
وكم من عدو أشوس متمرد  
وكم كربة فرجتها وكريهة  
وقد أضحت الدنيا لدى ذميمة  
وأصبح همى فى الجهاد ونيتى  
فلا ثروة الدنيا نريد اكتسابها  
وماذا أرجى من كنوز جمعتها  
بإيوان شيرين المزخرف خلتي  
ويوم نهاوند المهول استهلتي  
محيد بطعن الرمح أروع مصلت  
ضربت جموع الفرس حتى تولت  
وجردت سيفى فيهم ثم آلتى  
عليه بخيلى فى الهياج أظلت  
شدت لها أزرى إلى أن تجلت  
وسليت عنها النفس حتى تسلت  
فله نفسى أدبرت وتولت  
ألا إنها عن وفرها قد تجلت  
وهذى المنايا شرعا قد أظلت<sup>(٢)</sup>

وقد يعمد الشاعر إلى وصف بلاء قائده ومقدرته وبراعته فى سياسة جنده وفتكه  
بأعدائه، كقول أحد المسلمين فى جيش المثنى، إذ يقول - فى يوم سوق الأنبار:

(١) ياقوت ج ٢ ص ٨٧٢ - ٨٧٣.

(٢) الأخبار الطوال / ١٣٨.

وللمثى بالعال معركة  
 كتيبة أفزعت بوقعتها  
 وشجع المسلمين إذ حذروا  
 سهل نهج السبيل فافتقروا

شاهدها من قبيلة بشر  
 كسرى وكاد الإيوان ينفطر  
 وفي ضروب التجارب العبر  
 آثاره والأمور تقفّر<sup>(١)</sup>

وقد يعمد الشاعر إلى تصوير قوة الأعداء وثباتهم، ليتخذ ذلك سبيلا إلى الفخر بنفسه وبكتيبته، مثل قول عاصم بن عمرو يوم المقر:

ألم ترنا غداة المقرّ فينا  
 لقينا من بنى الأحرار فيها  
 قتلناهم بها ثم انكفأنا  
 إلى فم القرات بما استجارا<sup>(٢)</sup>

بأنهار وساكنها جهارا  
 فوارس ما يريدون الفرارا

هذه نماذج لشعر الجهاد، وهى فى مجموعها لا تخرج عن فنى الفخر والمدح الجاهلين. فالشاعر إذا أشاد بنفسه أو بقبيلته أو بكتيبته فإنما يفخر بها، شأنه فى ذلك شأن أى شاعر جاهلى. وإذا أشاد بقائده أو زميله فإنما هو يمدحه، كأى شاعر جاهلى، ولكن - برغم هذا - هناك فرق كبير.

فشعر الجهاد برغم كونه فخرا إلا أنه يكتسى هذا الصبغ الإسلامى، الذى يتجلى فى بروز فكرة الجهاد، التى وهبها الشاعر بلاءه وكفاحه. وهو حينما يعلن أنه قد أصبح همه فى الجهاد يفترق عن الشاعر الجاهلى، الذى كان يفخر بالثأر والانتقام للقبيلة.

وشاعر الجهاد وإن ظل شعره يتسم بسمات الفخر فهو فخر يختلف عن الفخر الجاهلى، إذ يصور فيه الشاعر إيمانه بقضية الجهاد ذاتها، كما رأينا لدى عروة بن زيد الخليل الذى يفخر بتفريج كرب المسلمين وكشف الأهوال عنهم، ويعلن فى نفس اللحظة: أنه ارتضى الجهاد سبيلا، دون أن يكون له رغبة فى زينة الدنيا وزخرفها، فقد باع كل شىء فيها بثواب الله، برغم ما تدفعه الدنيا إليه وإلى غيره من المجاهدين من

(١) البلاذرى / ٢٥٠ ، ياقوت ج ٣ ص ٥٩٣ .

(٢) ياقوت ج ٤ / ٦٠٥ .

كنوزها، فلا يغريهم كل هذا، لأنهم فى سبيل الله وحده. وما قيمة الدنيا والمنايا فاغرة أفواهاها محدقة بهم من كل جانب.

وشىء آخر يختلف فيه شعر الجهاد عن الفخر الجاهلى، الذى أساسه القبلىة والعصبية، فإن شعر الجهاد يقوم أساسا على الوجدان الجماعى لجماعة المسلمين، فى حين يشحب الفخر القبلى فى شعر الفتوح شحوبا واضحا.

وقد شغل الرجز بموضوعه القديم، إذ كان له دور كبير فى القيام مقام الموسيقى العسكرية فى الجيوش الحديثة، من التحميس والتعبئة الروحية للجنود. فهذا عمرو بن العاص فى اليرموك يرى بعض المسلمين من لحم وجذام ينحرفون عندما ضغط جرجه فى انضمامه إلى المسلمين مفاجأة فيدعوهم عمرو إلى مواصلة الجهاد، ويهددهم تهديدا عاطفيا رائعا فى هذين البيتين، حيث يقول:

القوم لحم وجذام فى الهرب      ونحن والروم نموج ونضطرب  
فإن تعودوا بعدها لا نصطحب      بل نعصب الفرار بالضرب الكلب<sup>(١)</sup>

وقد عبر الرجز فى هذا المقام عن الانفعالات السريعة المتدفقة فى نفوس الأبطال، وكان حافظا لهم على الإقدام والاستمرار فى النضال والفداء.

فهذا أحد عشرة إخوة من بنى كاهل من أسد يشيد بضرا به وطعانه يوم القادسية، وقد سبقه إلى الشهادة إخوته فيقول:

أنا ابن حرب ومعى مخراقى  
أضربهم بصارم رققراق  
أذكره الموت «أبو إسحق»  
وجاشت النفس على التراقى<sup>(٢)</sup>

وهذا أحد جنود المسلمين، يرى القائد الفارسى خرزاد يفر أمام المسلمين فيقول مفتخرا بهم:

(١) ابن عساکر ج ١ / ص ١٧٤.

(٢) الطبرى ج ٥ / ٢٣٢٨.

وَأَلْ مِنْ الْفَارِسِ الْحَذْرَةَ حِينَ لَقِينَاهُ دَوِينَ الْمَنْظَرَةَ

بِكُلِّ قِبَاءٍ لِحَوْقِ مِضْمَرَةٍ بِمِثْلِهَا يَهْزِمُ جَمْعَ الْكُفْرَةِ<sup>(١)</sup>

وهذا طليحة بن خويلد، يضرب الجالينوس فيقد مغفره، فيقول:

أَنَا ضَرَبْتُ الْجَالِينُوسَ ضَرْبَهُ حِينَ جِهَادِ الْخَيْلِ وَسَطِ الْكَبَةِ<sup>(٢)</sup>

وهذه امرأة رجل يدعى حنص بن الأحوص، ترى فعال زوجها، فتتمنى أن

يكون قوما جميعا مثله فتقول:

يَا لَيْتَ قَوْمِي كُلَّهُمْ حَنَابِصَةٌ<sup>(٣)</sup>

وهذا رجل في جيش البراء بن عازب، في غزاة قزوين، يمجذ بطولة قائده

وكتيبته، وما لاقت من صنوف العنت والمشاق فيقول:

قَدْ تَعَلَّمَ الْدَيْلِمُ إِذْ تَحَارَبَ لَمَّا أَتَى فِي جَيْشِهِ ابْنَ عَازِبٍ

بَأَنَّ ظَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَاذِبَ فَكَمْ قَطَعْنَا فِي دَجَى الْغِيَاهِبِ

من جبل وعري ومن سباسب<sup>(٤)</sup>

هكذا ينطبع رجز الجهاد بنفس الطابع الذي رأيناه لشعر الجهاد، فيختلف عن

الرجز الجاهلي، الذي كان يقوم على إثارة النعرات والتحميس للشأر والانتقام، فإذا هو

أداة لتعبئة الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله تعبئة روحية. فهذا الفارس تبلغ روحه

الخلقوم في سبيل الله. وهذا يفخر بكتيبته التي يهزم بمثلها جمع الكفرة. وآخر يعلن أن

ظن المشركين كاذب إذ جاءهم المسلمون كأقدارهم.

والموضوع الثاني من الموضوعات القديمة في شعر الفتح – هو الرثاء، وهو غرض

مستقل من أغراض شعر الفتح مقصود لذاته، وهو كشعر الجهاد تمجيد لبطولة الذين

(١) البلاذري / ٢٥٠.

(٢) البلاذري / ٢٦٠.

(٣) الإصابة ج ٢ ص ٩٥.

(٤) البلاذري / ٣٢٢.

استشهدوا، وإشادة بفعالهم، وموافقهم، والبكاء عليهم، وأفتدائهم، وتعداد مآثرهم. وهو وإن كان يتفق مع الرثاء الجاهلى فيما يشيع فيه من الحزن والأسى، وما يغلب عليه من استشعار الأسف والجزع على الفقيد، فإنه يختلف عنه فيما يمتلئ به من روح التسليم بالقضاء، والامثال لإرادة الله وحسن تقبلها، وتمثل ما أعدّه الله للشهداء من جزاء عظيم، كهذا الاستسلام الذى يبدو فى رثاء أبى عامر بن غيلان لولده، الذى خرج غازيا وأدركه طاعون عمواس، إذ يترجم الآية الكريمة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن] فى قوله:

عيني تجود بدمعها الهتان      سحاً وتبكي فارس الفرسان  
لو أستطيع جعلت منى عامرا      تحت الضلوع وكل حى فان<sup>(١)</sup>

وكهذا التسليم الذى يشيع فى رثاء أبى الحباب - ذريح بن الحارث - لولده الذى استشهد فى قتال الفرس، فيشبهه بالشهاب الذى خمد، ويشيد ببلائه فى القتال، وانعدام نظيره فى الفرسان إلى يوم الدين، لكنه يعود إلى اليقين بأن لكل أجل كتاب فيقول:

أبغى الحباب فى الجهاد ولا أرى      له شبيها ما دام لله ساجد  
وكان الحباب كالشهاب حياته      وكل شهاب لا محالة خامد<sup>(٢)</sup>

ويتجلى هذا التسليم بقضاء الله فى صورة رائعة فى قصيدة أبى ذؤيب الهذلى، الذى فقد بنيه الخمسة فى طاعون بمصر، إذ يبكيهم بكاء مرا، مظهرا أسفه البالغ على فقدهم، ويذكر حمايته لهم ودفاعه عنهم، ولكنه لم يجد شيئا أمام مناياهم التى حمت، فيقول:

أمن المنون وريبه تتوجع      والدهر ليس بمعقب من يجزع  
أودى بنى وأعقبونى حرةً      بعد الرقاد وعبرة لا تقلع  
فغبرت بعدهم بعيش ناصب      وإخال أنى لاحق مستتبع  
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم      فإذا المنية أقبلت لا تدفع

(١) الإصابة ج ٣/ ١٤.

(٢) الإصابة ج ٢ ص ١٨١.

وإذا المنية أنشبت أظفارها  
لا بد من تلف مقيم فانتظر  
ولقد أرى أن البكاء سفاهة  
ولتأتينَ عليك يوم مرة  
وتجلدى للشامتين أُرْسَهُمْ  
ألفيت كلَّ تيممةٍ لا تنفع  
فبارض قومك أم بأخرى المصرع  
ولسوف يولع بالبكا من يفجع  
بيكى عليك مقنعا لا تسمع  
أني لربِّ الدهر لا أتضعَضُ (١)

فمدافعة المنون عبث، والجزع أمام صروف الدهر لا قيمة له، وعلام يجزع وهو لاحق بهم لا محالة، فليس أحد بخالد، وقد حاول الدفاع عنهم وضاعت جهوده سدى، فالنابا لا تدفع، ولكل إنسان مصرع لا يعلم زمانه ولا مكانه والبكاء سفاهة، إذ لا قيمة له، والباكى سوف ييكي عليه يوما ما.

وفضلا عن هذه الروح الإسلامية نجد اعتزازا كبيرا بما أعده الله للشهداء من ثواب وأجر، كما فى قول من رثى شهداء المسلمين الذين دفنوا فى القادسية بمشرق، إذ قال:

جزى الله أقواما بجنب مشرق  
غداة دعا الرحمن من كان داعيا  
جنانا من الفردوس والمنزل الذى  
يحل به م الخير من كان باقيا (٢)

ولعلنا لا نجد فى الشعر العربى قصائد كثيرة تشبه القصيدة الرائعة التى رثى بها كثير بن الغريزة النهشلى الذى كان بجيش الأقرع بن حابس التميمى شهداء جوزجان والطاقان، ورثى بها نفسه رثاء رائعا، يذكرنا بقصيدة مالك بن الربيع فى فتح خراسان، وهى تجرى على هذا النمط:

سقى مزن السحاب إذ استقلت  
مصارع فتية بالجوزجان  
إلى القصرين من رستاق حوط  
أقادهم هناك الأقرعان  
وما بى أن أكون جزعت إلا  
حنين القلب للبرق اليماني

(١) ديوان الهذليين ج١/ص١، الاستياب، ص٦٦٦، ياقوت ج٤ ص٥٣٨.

(٢) ياقوت ج٤ ص٥٣٩.

لقاء ولن أراه ولن يرانى  
بكيت ولو نعتت له بكانى  
فما أدرى باسمى أم كنانى  
عظفت عليه خوار العنان  
يطرف عنك غاشية السنان  
عن الأقران فى الحرب العوان  
ولم أجعل على قومى لسانى  
منيع الجار مرتفع البنان  
وأقضى واحدا ما قد قضانى  
سأوشك مرة أن تفقدانى  
وإن أشفقت من خوف الجنان  
تركن بدار معترك الزمان  
سواجى الطرف كالبقر الهجان  
وللرشد المبين فاهديانى  
ونفعكما بعييد الخير . . وان  
ولا وأبيكما لا تفعلان<sup>(١)</sup>

ومحبور برؤيتنا يرجى الـ  
ورب أخ أصاب الموت قلبى  
دعانى دعوة والخييل تردى  
فكان إجـابـتى إياه أنى  
وأى فتى إذا ما مت تدعو  
فإن أهلك فلم أك ذا صدوف  
ولم أدرج لأطرق عرس جارى  
ولكنى إذا ما هايـجـونى  
ويكرهنى إذا استبسلت قرنى  
فلا تستبعدا يومى فىانى  
ويدركنى الذى لا بد منه  
وتبكينى نوائح معولات  
حبائس بالعراق منهـنـهات  
أعاذلتى من لوم: دعانى  
وعاذلتى صوتكما قريب  
فردا الموت عنى إن أتانى

فالشاعر جزع على هؤلاء الشهداء، الذين لاقوا مصارعهم فى هذه البلاد النائية، وزاد فى جزعه أيضا أنه يحزن وقد رأى ما رأى إلى موطنه وإلى من خلفهن فى العراق، وهو يشعر بأنه لن يلقاهن، ويتضاعف حينه وفزعه عندما يقابل بين ما حدث لهؤلاء الفتيان وما يمكن أن يحدث له هو الآخر، فليس هناك فرق بين أن يعنى إليه أخ أو أن يعنى هو إليه. وماذا يمكن أن يفيدته الجزع وقد قام بواجبه على أتم وجه، وأدى ما

(١) أغاني دار الكتب ج ١١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

استطاع، وقدم كل ما يملك لهذا الأخ الذى استنجد به فى المعركة فى بسالة لا نظير لها، فلا ضير إذا هلك، فهو شجاع لا يجبن عن ملاقة الأقران، عفيف لم يمتد طرفه إلى عرس جاره، ولم يؤذ أحدا من قومه، وهو منيع الجار، لا يقبل الضيم، وإذا أهيج يكرهه خصمه إذا لاقاه لصلابته وفتكه، وهو الآن يشعر بدنو أجله، ويحس أنه عما قريب مفقود، فسوف يدركه الموت الذى لا مفر منه، ولن يشفع له حبه الحياة، وأتذك سوف تعول نائحات ساجيات الطرف عليه فى العراق.

ألم يأن لعاذلتيه أن تكفا عن لومه؟ وأن تهدياه إلى الطريق القويم إن استطاعتا؟ وأن تردا عنه الموت لو تآتى لهما؟ ولكن هذا محال.

وبهذا الاستبطان والتأمل الذاتى فلسف الشاعر موقفه من الموت، وجعل من رثاء شهداء الطالقان موضوعا إنسانيا كبيرا، وإن شاع فى نهاية هذه الفلسفة نفس الروح الإسلامية، فى التسليم بالقدر والاستسلام للقضاء. وشاعت نفس هذه المعانى فى الرجز، فطبعته طوابع إسلامية: كالإيمان بأحقية الموت، والثقة بالله، والتسليم بقضائه.

فهذا أخو بنى كاهل يرثى نفسه وينعيها إلى أخيه، ويدعوه إلى أن يصبر فى لقاء عدوه، وكأنه يستخلفه مكانه، فيقول:

وجاشت النفس على التراق      صبيرا عفاق إنه الفراق<sup>(١)</sup>

وهذا الأعور بن قطبة: يستشعر شعورين متضارين من الغبطة والحزن فى لحظة واحدة يوم أغواث، فقد قتل أخوه قائدا من قواد الفرس، ولكن هذا القائد طعنه قبل أن يسقط، فهو فرح لأن أخاه أبلى هذا البلاء، ولكنه حزين لفقد أخيه البطل فيقول:

لم أر يوما كان أحلى وأمر      من يوم أغواث إذ افتر الثغر

من غير ضحك كان أسوى وأبر<sup>(٢)</sup>

وهكذا نجد هذين الموضوعين القديمين يتطوران فى شعر الفتح، إذ يتطور الفخر القبلى الذى يقوم على التفاخر بالأحساب والعصبيات والتعرات إلى شعر يفخر فيه

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢٨.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٦.

المجاهد ببلائه وبطولته في سبيل فكرة الجهاد من أجل العقيدة التي يؤمن بها، ويتعدى ذلك إلى استشعار الشاعر وجدانا جماعيا لجماعة المسلمين يصدر عنه في شعره، سواء غنى به أو تغنى بفرديته كعضو في إطاره، ويشيع في هذا الموضوع كثير من معاني الفداء والإيمان بنصر الله للمؤمنين على أعدائهم الكافرين، كما يشيع فيه إخلاص للفكرة، ورفض لكل شيء في الدنيا يشغل عنها. وقد قاسم الرجز الشعر هذه المعاني أيضا، وتطور شعر الرثاء الجاهلي هو الآخر، من إشادة بالفقيد وكرمه وشرفه والجزع عليه إلى الإيمان بالموت ووجوبه والتسليم به، والصبر على قضاء الله، واستشعار ما أعد للمجاهدين والشهداء في سبيله من الأجر والثواب، فضلا عن الإشادة ببطولة الشهيد، وما قدم في سبيل الله من تضحيات، وشارك الرجز في هذه المعاني ذاتها، وإن كان ذلك في صورة ضيقة، إذ إن نصوص الرجز في الرثاء قليلة جدا.

وإلى جانب هذين الموضوعين التقليديين استجدت موضوعات أخرى سجلها شعر الفتوح، وآثرنا أن نفردها وحدها، لأنها كانت نتيجة لاحتكاك الفاتحين ببيئات جديدة. وقيل أن نعرض لها نرى أن نعرض للون جديد من ألوان الرثاء استجد في الشعر الذي قيل في الفتوح، وهو لون طريف لم يعرفه الشعر العربي من قبل، ذلك أن بعض المجاهدين راحوا يرثون أعضاءهم وأشلاءهم التي فقدوها في المعارك في صورة رائعة، تمتلئ بالشجاعة والبسالة وإظهار الشدة والاحتمال والبأس، واحتساب هذه الأعضاء والفخر ببذلها في سبيل الله، والاستهانة بفقدائها أمام ما أفقدت العدو من أرواح وأعضاء. ومن بين هذه الصور الرائعة التي يصور فيها عبدالله بن سبرة الجرشي احتسابه يده عند الله، مشيدا بما فعلته هذه اليد في سبيله، فقد قتلت أرطوبون الروم، في مبارزة فقدت فيها يوم فلطاس فقال:

ويل ام جارى غداة الروع فارقنى	أهون على به إذ بان فانقطعنا
يمنى يدي غدت منى مفارقة	لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وما ضنت عليها أن أصحابها	ولقد حرصت على أن نستريح معا
وقائل غاب عن شأني وقائلة	هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصله	نحوى وأعجز عنه بعدما وقعا

ولو تقارب منى الموت فاكتنعا  
حتى إذا أمكنا سيفيهما قطعا  
فما استكان لما لاقى ولا جزعا  
فقد تركت بها أوصاله قطعا  
فإن فيها بحمد الله متفعا  
صدر القناة إذا ما آسوا فزعا<sup>(١)</sup>

ما كان ذلك يوم الروح من خلقى  
يمشى إلى مستميت مثله بطلٍ  
حاسيته الموت حتى اشتف آخره  
فإن يكن أرطبون الروم قطعها  
وإن يكن أرطبون الروم قطعها  
بناتين وجرموزا أقيم بها

فهو يرثى يده، وكأنها إنسان عزيز فقده وفارقه، وقد حرص على أن يتبعها، ولكنه لم يستطع، لا ضنا بنفسه على الموت ولا جبا، كهؤلاء الذين يلومونه على تعرضه للبطل الرومى، ويتمنون له أن يتجنبه، وهو يسعى بسيفه نحوه، فهل يعجز بعدما كان من بروزه ويرتد مذعورا أمامه؟ وهل يليق هذا ببطل مثله؟ وأمكنا سيفيهما، وراح الشاعر يسقيه كأس الموت حتى آخره، وثبت البطل، ولم يجزع حتى صرع قرنه وفقد يده.

ولكن هذه اليد التى قُطعت قد قَطعت أوصال خصمه، وإن يكن خصمه قطعها، فإنه لم يفسدها كلها فقد بقيت فيها منافع، فله بناتان وجرموز تمكنه من الحفاظ على المسلمين، حينما يأنسون جزعا.

وبهذه الصورة الرائعة وأمثالها سجل الشعراء والرجاز رثاءهم لأعضائهم التى فقدوا، فهذا علباء بن جحش العجلي، يطعنه فارسي فى بطنه فيقصرها ويخرج أمعاءه، فإذا به ثابت الجنان يدفع بأمعائه إلى بطنه، وهو يرتجز بكلماته الأخيرة:

أرجو بها من ربنا ثوابا      قد كنت ممن أحسن الضرابا<sup>(٢)</sup>

وهذا أخو بنى كاهل، وقد قطع أحد فرسان العدو رجله، فراح يحتسبها عند الله، مستهينا بها قائلا:

(١) الإصابة ج ٥ ص ٦٠، ٩٢، الطبرى ج ٥ ص ٢٤١.

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٢٣١.

صبرا ولا تغفرك رجل نادره<sup>(١)</sup>

صبرا عفاق إنها الأساوره

وهذا حياض بن قيس القشيري، يرثى رجله، حتى ليعرف بناشد رجله، فيفخر به  
سوار بن أوفى في قوله:

ومنا الذى أدى إلى الحى حاجبا<sup>(٢)</sup>

ومنا ابن عتاب وناشد رجله

وكان حياض هذا: قد ضربه أحد الروم فى اليرموك فقطع رجله، فقال متوهما  
الروم أساوره يخاطب فرسه:

ولا تغفرك رجل نادره

أقدم حذام إنها الأساوره

أضرب بالسيف رءوس الكافرة<sup>(٣)</sup>

أنا القشيري أخو المهاجرة

وذكر بعض الشعراء مثل هذا مما فعلوه بالعدو. فهذا علقمة بن الأرت، يتحدث  
عن الأكف والأسواق التى أطاحها المسلمون من الروم فى يوم فحل فيقول:

كفاحا وكف قد أطيحت وأسوق<sup>(٤)</sup>

وكم من قتيل أرهقه سيوفنا

وجلى أن هذا اللون يغلب عليه طابع إسلامى بصورة ظاهرة، فى معانيه وألفاظه  
وما يشيع فيه من روح الفداء والتضحية والاحتساب، فى مقابل ما أعدده الله للمجاهدين  
من حسن الثواب.

وخلاصة القول: أن شعر الجهاد فارق الحماسة الجاهلية، فى التخفف من كل ما  
حظره الإسلام من الغزل المحسوس، والتغنى باللهو والعبث والشراب ولم يعد تفاخرا  
بالشجاعة فى الثأر والانتقام والإغارة، وإنما أصبح تفاخرا بالبطولة، والتفانى فى الجهاد فى  
سبيل الله، الذى يظهر فيه إيمان الشاعر بالعميقة التى دفع عنها إيماننا عميقا، يستشرف  
فيه الشاعر مغنم أخروية وعده الله بها، ويصدر فيه عن روح الجماعة الإسلامية، التى  
كادت تذوب داخلها القبليات والنعرات الجاهلية، كما يصدر فيه عن نفسه كعضو فى  
هذه الجماعة واضح الشخصية متميزها، يؤدى واجبا يشعر بقداسته ويؤمن بدواعيه.

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢٩.

(٢)، (٣) الإصابة ج ٢ ص ٦٨.

(٤) الإصابة ج ٥ ص ١١١.

وكذلك اختلف شعر الرثاء فى الفتح عن الرثاء التقليدى، فيما شاع فيه من آثار التعاليم الدينية ومظاهر الإيمان بالموت والاستبشار بالجنة، فضلا عن هذا اللون الجديد من الرثاء الذى بكى فيه المسلمون أشلاءهم بكاء جديدا، يظهرون فيه الاستهانة بما فقدوا فى سبيل الله. ويلف الرثاء بلونه التقليدى والمستحدث إطار إسلامى جلى، وإشارات واضحة إلى الجنة والثواب والأجر الذى أعده الله للشهداء والمجاهدين.

## ٢- موضوعات جديدة

هذه الموضوعات الجديدة التى عبر عنها شعر الفتح نتيجة طبيعية لحياة الفاتحين فى بيئة جديدة عنهم وبعيدة عن أوطانهم. وأول هذه الموضوعات ما نسميه بشعر الحنين، ونعنى به ذلك الشعر الذى يعبر عن أشواق الشاعر التى كانت تملأ جوانبه، وعن المواجه التى كانت تلذع كبده، نتيجة بعده عن وطنه، عندما يتذكر مرابعه الأولى فيحن إليها، ويذكر أهله الذين فارقهم، ويتمنى لقاءهم فيشكو بعده واغترابه عنهم، كهذا المجاهد الذى يشكو غربته إلى قمرية خالها غريبة مثله فى مرر الشاهجان فقال:

أقمرية الوادى التى خان إلفها      من الدهر أحداث أتت وخطوب  
تعالى أطارحك البكاء فإننا      كلانا بمرر الشاهجان غريب<sup>(١)</sup>

وكما يسكب الشاعر الغريب عواطفه على الطيور ويشكو إليها همومه يفرغ إلى طبيعة دياره التى خلفها وراءه، عندما يعانى من قسوة أجواء هذه المناطق النائية ويردها وثلجها، فيتحسر على دفء موطنه، كهذا الشاعر الذى راح يذم جو مرر، ويتمنى جو العراق فى بره وبحره، إذ يقول:

وأرى بمرر الشاهجان تنكرت      أرض تتابع ثلجها المذور  
أسفى على بر العراق وبحره      إن الفؤاد بشجوه معذور<sup>(٢)</sup>

وإن كان هذا الشاعر يذم برر مرو شوقا إلى دفء العراق، فإن شاعرا آخر من الفاتحين يضيّق بقيظ بعض المناطق البعيدة الأخرى عن وطنه، ويتسم برر رياح نجد،

(١) ياقوت ج ٢ ص ٥١٠.

(٢) نفس المرجع.

وطيب مناخه، ضائقا بغربته بين أناس ليسوا من قومه ولا من عشيرته ولا من لسانه،  
فيقول:

أبكي على نجد وريا ولن ترى	بعينك ريا ما حيت ولا نجد
ولا مشرفا ما عشت أقفار وجرة	ولا واطنا من تربهن ثرى جعدا
ولا واجدا ريح الخزامى تسوقها	رياح الصبا تعلقو دكادك أو وهذا
تبدلت من ريا وجارات بيتها	قرى نبطيات يسميتى مردا
ألا أيها البرق الذى بات يرتقى	ويجلو دجى الظلماء ذكرتنى نجدا
ألم تر أن الليل يقصر طوله	بنجد وتزداد الرياح به بردا؟(١)

وأخذ الشعور بالغربة على الفاتحين يتصور صوراً مختلفة، فنجد يقصر الليل فيه  
وتزداد رياحه برداً، ولكنه في غربته يزداد طولاً وقيظاً.

وهذا ورد بن الورد فى رامهرمز يحن إلى حبيته ودياره فى بنى كعب، فيصور  
فؤاده مصعداً مع المصعدين إلى أرض الوطن، ولا يجد خيراً فى الدنيا إذا لم يزر فيها  
حبيبه فيقول:

أمغتربا أصبحت فى رامهرمز	ألا كل كعبى هناك غريب
إذا راح ركب مصعدون فقلبه	مع المصعدين الراضحين جنب
وإن القلب الفرد من أيمن الحمى	إلى وإن لم آتة لحبيب
ولا خير فى الدنيا إذا لم تزر بها	حبيبا ولم يطرب إليك حبيب(٢)

وراح بعض الشعراء ييكون حظهم الذى ألقى بهم إلى هذه المناطق النائية، حتى  
ليضيقون بالقتال والحرب فيها، ويصرحون بهذا فى شعرهم، كما فعل هذا الجندى الذى  
يقول:

(١) ياقوت ج ٤ ص ٩٠٦.

(٢) ياقوت ج ٢ / ٧٣٨.

محلّه جند ما الأعراب والجند؟

تبدلت من نجد ومن يحلّه

زمانى بأرض لا يقال لها بند<sup>(١)</sup>

وأصبحت فى أرض الجنود وقد أرى

ويستبد الحنين بالشاعر فينظر ناحية نجد، برغم أنه لا يرى شيئاً، ولكنه ينظر حينئذ إليها وإلى خيامها التي يقصر عنها الطرف وبرغم ألا نفع فى نظره فلا يزال ينظر، ثم تجرى عبراته تتحدر هكذا كل يوم، وهكذا لا يستريح قلبه، فإما مجاهد فى غزاة، أو ناء يتذكر يقول:

برغمى وإن لم يدرك الطرف أنظر

أكرر طرفى نحو نجد وإننى

إذا أمطرت عود ومسك وعنبر

حينئذ إلى أرض كأن ترابها

ونور الأقاليم وشى برد مجير

بلاد كأن الأقبان بروضه

خيام بنجد دونها الطرف يقصر

أحن إلى أرض الحجاز وحاجتى

أجل لا، ولكنى إلى ذاك أنظر

وما نظرى من نحو نجد بنافع

لعينك مجرى مائها يتحدر

أفى كل يوم نظرة ثم عبرة

بحرب وإما نازح يتذكر<sup>(٢)</sup>

متى يستريح القلب إما مجاوز

وفى مثل هذه الظروف القاسية الوحشة يجد الشاعر المجاهد الغريب نفسه بحاجة إلى أن يهرب إلى الطبيعة يئسها آلامه وأحزانه، ولا يزال الشعر الذى قيل فى نخلة القادسية يصور لنا عاطفة الإنسان المأزوم نحو الطبيعة وجسوته إليها، وبخاصة لو استشعر إلى جانب مشاعر الاغتراب والوحشة قلقاً يتهدد حياته، أو عندما يهاجمه الإحساس بدنو أجله.

كان ذلك يوم عماس، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة، وكان عدد الجرحى كبيراً، وأخذ المسلمون فى دفن القتلى بمشرق، ودفعوا بالجرحى إلى عناية النساء، وكان بين موقع المعركة مما يلى القادسية وبين حصن العذيب نخلة وحيدة، ليس حولها شئ من الزرع، وكان المسلمون إذا حملوا الجريح مروا به عليها، فإذا كان فيه

(١) ياقوت ج ٤ ص ٧٢٩.

(٢) ياقوت ج ٤ / ٧٤٧.

تميز نظر إليها طويلا، ثم قال لحامله: أرحنى تحت ظل هذه النخلة، فيرتاح تحتها برهة، يترنم فيها بيت من الشعر يتمنى فيه السلامة لها، وكأنه يخاطب نفسه فيها، إذ لم يجد أهله وأحباءه حوله يقولون له هذه الكلمة فيخففون بها بعض ما به من ألم. ويذكر وحدة النخلة، وكأنه يعبر بذلك عن غربته، مثل هذه النخلة التي لا يجاورها نخل فيقول:

ألا فاسلمى يا نخلة بين قادمين  
وبين العذيب لا يجاورك النخل  
فإذا بجريح آخر يقول:

ألا يا اسلمى يا نخلة بين جرعة  
يجاورك الجممان دونك والرجل  
فإذا بثالث من تيم الله يدعى ربيعا يقول:

أيا نخلة الجرعاء يا جرعة العدا  
سقتك الغوادى والغيوث الهواطل  
وحمل إليها الأعور بن قطبة جريحا - فيمن حمل - فقال:

أيا نخلة الركبان لازلت فانضرى  
ولازال فى أكتاف جرعاتك النخل  
فيرد عوف بن مالك التميمي:

أيا نخلة دون العذيب بتلعة سقيت الغوادى المدجنات من النخل<sup>(١)</sup>

وموضوع الحنين على هذه الصورة باب رائع من أبواب الشعر الإسلامى، ذلك أنه يلتف فى نطاق وجدانى رفيق، تنسكب فيه أعماق المشاعر العاطفية فى تدفق وحرارة وصدق.

ونحن لا نعرف لهذا الشعر شبيها يقابله فى شعر الجاهلية على كثرة ما كان من ظعنهم ورحيلهم إلا ما كان يعرف من بكاء الأطلال. وفى اعتقادنا: أن وجود هذا الضرب من الشعر فى الفتوح يعلل اختفاء المقدمات من هذا الشعر، إلى جانب ما أسلفناه من أسباب فى تعليل هذه الظاهرة. وربما يعلل وجود هذا اللون أيضا: ما أخذ يشيع بعد استقرار المجتمع الإسلامى وبسط سلطانه على الأمصار المفتوحة من غزل رقيق عذرى، متطور عن هذا اللون من شعر الحنين الحزين الشجى.

(١) المسعودى، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٩، الطبرى ج ٥، ٢٣١٧، ٢٣١٨.

وللتدليل على ما نذهب إليه بصدد حلول قصائد الحنين هذه محل المقدمة الطللية، الذى استوعب هذا اللون كل ما كان يسكب فيها من عواطف. نرى أنه لا ضمير فى أن تكون هذه الأبيات مطلعا لإحدى القصائد التقليدية وهى أبيات لأحد الفاتحين النازحين يقول فيها:

تبكى على نجد لعلى أعينها	خليلى هل بالشام عين حزينة
إليها فأخلها بما بذاك حنينها	وهل بائع نفسا بنفس أو الأسى
مطوقة قد بان عنها قرينها	وأسلمتها الباكون إلا حمامة
يكاد يدينها من الأرض لينها	تجاوبها أخرى على خيرزانة
أرى من سهيل نظرة أستيئها	نظرت بعينى مؤنسين فلم أكد
فهيج لى شوقا لتجد يقينها <sup>(١)</sup>	فكذبت نفسى ثم راجعت نظرة

فهل هناك فرق بين هذه الأبيات وأية مقدمة طللية؟ وهل هناك فرق بينها وبين ما نراه بعد عند العذريين من آلام الشوق والتبريح؟

وفى الوقت الذى نجد فيه الرجز يقاسم الشعر فى الموضوعات القديمة المتطورة كشعر الجهاد والرياء نجده لا يستطيع أن يشاركه فى شعر الحنين، إذ هو اللون الوحيد من ألوان الشعر فى الفتوح، الذى لم يكن للرجز فيه نصيب من التعبير. وربما يرجع هذا إلى أن معانى الحنين لا يمكن نظمها إلا فى ظروف وجدانية خاصة، ولحظات غنائية حاملة ومتأنية، مما يخالف طبيعة الرجز، الذى غلبت عليه طبيعة الاندفاع والانفعال العنيف اللاهب، نتيجة لقيامه بدور التحميس والحث فى ظروف القتال.

وحظيت المشاهد الغريبة التى عاينها المسلمون لأول عهدهم بها فى مناطق الفتح الثانية، وبخاصة فى الجناح الشرقى لفارس بغير قليل من عناية الشعراء الذين راحوا يصورون انطباعاتهم بهذه المشاهد وانعكاساتها على أنفسهم. وقد حظيت طبيعة هذه البلدان التى تختلف عن طبيعة بلاد العرب باهتمام الشعراء بها وتصويرها، والتعبير عن

(١) ياقوت ج ٤ ص ٧٤٨.

إعجابهم بها أو الضيق منها، وبخاصة أحوال الجو وبرده، الذى عانى منه المسلمون فى حصارهم بعض المناطق فى مكران وما مائلها، كما يبدو فى قول الحكم التغلبى الذى افتتحها، إذ يقول:

لقد شبع الأرامل غير فخر      بفسىء جاءهم من مكران  
أتاهم بعد مسغبة وجهد      وقد صفر الشتاء من الدخان<sup>(١)</sup>

وهذا أحد الفاتحين يضيق ببرودة الجو فى مرو، ويعجب لتنكر الأرض التى تتابع ثلجها، ويشفق على أهلها الذين يقضون الشتاء مقرورين، دائما محتمين بأثواب يدسون أيديهم فيها لشدة البرد، كأنهم أسرى فيقول:

وأرى بمرءى الشاهجان تنكرت      أرض تتابع ثلجها المذرور  
إذ لا ترى ذا برة مشهورة      إلا تخال كأنه مقررور  
كلتا يديه لا تزایل ثوبه      كل الشتاء كأنه مأسور<sup>(٢)</sup>

وفى نفس الوقت عبر بعض الفاتحين عن إعجابهم بطبيعة البلدان التى افتحوها، وتغنوا بجمالها إلى أهلهم فى شبه الجزيرة، كما يبدو فى شعر أبى بجيد الأسود بن قطبة التى يتغنى فيها بريف الرى، فيقول:

رضينا بريف الرى والررى بلدة      لها زينة فى عيشها المتواتر  
لها نشز فى كل آخر ليلة      تذكر أعراس الملوك الأكاير<sup>(٣)</sup>

وهذا سواد بن قحطبة يتغنى بجمال الطبيعة فى جرجان، فيقول:

ألا أبلغ أسيدا إن عرضت بأننا      بجرجان فى خضر الرياض النواضر<sup>(٤)</sup>

ولعل أشد هذه المشاهد لفتا للعرب فى أول نزولهم بلاد الفرس الفيلة، التى لاقوا منها شدة فى بعض معاركهم مع الديلم، وبخاصة يوم بابل، ويوم الجسر، وفى

(١) ياقوت ج ٤ ص ٦١٢.

(٢) ياقوت ج ٤ ص ٥١٠.

(٣) ياقوت ج ٢ ص ٨٩٥.

(٤) ياقوت ج ٢ ص ٨١٥.

القادسية، وقد دار ذكرها في شعر عدد كبير من شعراء المسلمين ذكرها ربيعة بن مقروم الضبي، وفخر برزيتها وشهود معاركها، فقال:

ودخلت أبنية الملوك عليهم      ولشرق قول المرء ما لم يفعل  
وشهدت معركة الفيول وحولها      أبناء فارس يبضها كالأعبل  
متربلى حلق الحديد.. كأنهم      جرب مقارفة عنية مهمل<sup>(١)</sup>

وأشار عبدة بن الطيب إليها في لاميته فقال:

حلت خويلة في دار مجاورة      أهل المدينة فيها الديك والفيل<sup>(٢)</sup>

وصور الشعر ما كان يحدث لخيول المسلمين من الاضطراب بسبب الفيول، حتى كاد المسلمون أن يخسروا المعركة يوم بابل، كما خسروها يوم الجسر. وفي القادسية: فعلت الفيلة فعلها في الخيل، حتى ليقول أبو محجن الثقفي:

وما رمت حتى خرقوا بسلاحهم      إهابى وجادت بالدماء الأباجل  
وحتى رأيت مهرتى مسزوترة      لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل<sup>(٣)</sup>

وظل هذا حال الفيلة وفعلها بالمسلمين حتى عرفوا مقاتلتها. وكان من الذين قطعوا مشافر الفيلة: القعقاع بن عمرو، الذي قطع مشفر الفيل الأعظم يوم القادسية، وفقاً عينه برمحه وقال:

فإن كنت قاتلت العدو فللته      وإنى لألقى في الحروب الدواهيا  
فيولا أراها كالببوت مغيرة      أسمل أعياننا لها ومآقيا<sup>(٤)</sup>

وأشاد سعد بن أبي وقاص ببلاء الذين تعرضوا للفيلة من المسلمين فأراحوا إخوانهم منها بعد أن قتلت في بنى أسد خمسمائة، فقال يشيد ببطولة القعقاع، وحمال الوالبي:

(١) الحيوان ج ٧ / ٢٦٢ والمفضليات ص ٢٦٨ ، والأغاني ج ١٩ ، ص ٩٣ الخزانة ج ٣ ص ٥٦٦ .

(٢) المفضليات ٢٦٨ والأغاني ج ١٧ ص ١٦٣ والإصابة ج ٥ ص ١٠١ .

(٣) الأغاني ج ٢١ ص ١٤٥ .

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢٧ .

فقد لقيت خيولهم خيولا  
وقد دلفت بعرصتهم فيول  
فلولا جَمْع قعقاع بن عمرو  
هم منعوا جموعكم بطعن  
ولولا ذاك ألقىتم رعاعا  
وقد وقع الفوارس في الضراب  
كأن زهاءها إبل جراب  
وحمال للجأوا في الكذاب  
وضرب مثل تفتيق الإهاب  
تشل جموعكم مثل الذباب<sup>(١)</sup>

وكما ضاق المسلمون بالفيلة ضاقوا بما لم يألفوه، من الحشرات والأوبئة التي تعرضوا لإيذائها في هذه البيئات، فشكوا منها، كما يبدو في هذا الشعر الذي يشكو فيه صاحبه من الذباب الذي يؤذى ناقته ويردها عن الماء في كربلاء عند التقاء كعبة خالد بجند عياض حيث يقول:

لقد حبست في كربلاء مطيتي  
إذا رحلت من مبرك رجعت له  
وفي العين حتى عاد غنا سمينها  
لعمرو أبيها إني لا أهينها  
ويمنعها من ماء كل شريعة  
رفاق من الذبان زرق عيونها<sup>(٢)</sup>

ولا ريب في أن الشعر الذي صور طاعون عمواس وأثره قد نجح في رسم صورة مؤثرة للمأساة التي أودت بكثير من المسلمين، الذين اجتمع عليهم الطعن والطاعون في وقت واحد. يقول المهاجر بن خالد بن الوليد وقد فقد أربعين من بني عمومته في هذا الطاعون:

أفنى بنى ريطة فرسانهم  
ومن بنى أعمامهم مثلهم  
عشرون لم يقصص لهم شارب  
لمثل هذا يعسج العاجب  
طعن وطاعون منياهم  
ذلك ما خط لنا الكاتب<sup>(٣)</sup>

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٥٨ ر ٢٣٦٢.

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٥٩.

(٣) الإصابة ج ٦ ص ٩٦.

وفى نفس المعنى يقول عبدالله بن سبرة الجرشى:

إدن أقبل الطعن فالطاعون يرصدنى      كيف التقاء على طعن وطاعون<sup>(١)</sup>

وكان ركوب البحر حدثا كبيرا سجله الشعراء وأشادوا به، وأكدوا فى شعرهم أن الله قد ذلله لهم وبشروا بما أعدده الله لمن يعبر فى طاعته. يقول عفيف بن المنذر التميمى وقد غزا مع العلاء بن الحضرمى فارس من البحرين فى وقعة طاووس:

ألم تر أن الله ذلل بحـره      وأنزل بالكفار إحدى الحلائل

دعونا الذى شق البحار فجاءنا      بأعظم من فلق البحار الأفاضل<sup>(٢)</sup>

وأخذ المسلمون يعرفون بعض ألوان المأكّل والمشارب الفارسية ويذكرونها فى شعرهم. إذ إن أبا عبيد بن مسعود الثقفى - شهيد الجسر - بعد أن هزم الفرس فى السقّاطية بكسكر نزل بقرى باروسما، حيث خف إليه الفرس يصلحونه، وصنع له «فروخ» و«فرنذا» من رؤساء الدهاقين طعاما قدموه له، ولكنه رفض أن يطعمه دون جنده، فأخبروه أنهم يطعمون فى نفس الوقت فأكّل، ولما عاد إلى جنده سألهم ماذا كان طعامهم؟ فأخبروه بما جاءهم، فدعاهم ليعرفوا ألوان الطعام التى قدمت إليه. من قرو ونجم وجوزل وشواء وخردل، فقال عاصم بن عمرو التميمى:

إن تك ذا قرو ونجم وجوزل      فعند ابن فروخ شواء وخردل

وقرو رقاق كالصحائف طويت      على مزرع فيها بقول وقوزل<sup>(٣)</sup>

وكان المسلمون يرون أموال الفرس تنصب فى حجورهم: من غنائم وأسلاب وجزية تؤدى إليهم، فيذكرون ذلك فى عزة وفخر. فبعد المدائن: حاز المسلمون خزائن كسرى ودروعه وأسيافه، فقال أبو بجيد نافع بن الأسود:

فانتشلنا خزائن المرء كسرى      يوم ولوا وحاض منا جريضا<sup>(٤)</sup>

(١) الإصابة ج ٥ ص ٦٠.

(٢) الإصابة ج ٥ ص ١٠٩.

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢١٧٣.

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٤٢٤.

وهذا - سهيل بن عدى يفخر بصيرورة خراج الجزيرة إلى المسلمين بعد وقعة الرقة، فيقول:

وصار الخرج ضاحية إلينا      بأكتاف الجزيرة عن نقالي<sup>(١)</sup>

وهذا - عمرو بن مالك الزهري ينادى إليه الفرس بقبول الجزية، بعدما ذاقوا مرارة القتال فى قرقيسيا:

فنادوا إلينا من بعيد بأننا      ندين بدين الجزيرة المتواتر<sup>(٢)</sup>

ودارت مثل هذه المعانى فى شعر عرب الحيرة، الذين استكثروا على المسلمين أن يسكنوا منازل المناذرة، وأن يمتلكوا الخورنق والسدير، وأن تؤدى إليهم الجزية، بعدما كانت تؤدى إلى كسرى، حتى قال عمرو بن عبدالمسيح بن ببيعة أحد زعماء الحيرة:

أبعد المنذرين أرى سواما      تروح بالخورنق والسدير  
وبعد فوارس النعمان أرعى      قلووصا بين مرة والحفير  
فصرنا بعد هلك أبى قبيس      كجرب المعز فى اليوم المطير  
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى      وخرج من قريظة والنضير<sup>(٣)</sup>

وكانت ملابس الجنود الفارسيين وشكتهم يثيران فى نفوس المسلمين بعض الدهشة، فذكروها فى شعرهم، من مثل قول ربيعة بن مقروم:

متسريلى حلق الحديد كأنهم      جرب مقارفة عنية مهمل<sup>(٤)</sup>

كما أخذت بعض الكلمات الفارسية تسقط إلى المسلمين فيعجبون لها، كما حدث لهذا الذى يقول:

تبدلت من ليلى وجارات بيتها      قرى نبطيات يسميتنى مردا<sup>(٥)</sup>

(١) ياقوت ج ٢ ص ٨٠٢.

(٢) ياقوت ج ٤ ص ٦٥.

(٣) ياقوت ج ٢ ص ٤٩٢.

(٤) الفضليات ٢٦٨.

(٥) ياقوت ج ٤ ص ٩٠٦.

كذلك كانت كنائس الروم ويبيعهم وما فيها من زخرف ونقوش تلفت أنظارهم كما  
لفتت نظر حارثة بن النمر وقد شهد اليرموك فقال:

لله باليرموك قوم طحطوا      أحساب عاتى الروم بالأقدام  
فتعطلت منهم كنائس زخرفت      بالشام ذات فسافس ورخام<sup>(١)</sup>

وأثرت هذه الأجواء الجديدة فى بعض العرب وفتنت نفرا منهم، فأنحرفوا عن  
الصواب، وعكفوا على الخمر، وشهود مجالس الطرب والغناء واللهو، يغنيهم الدهاقين  
والمسمعات الأجنبية، كما يصور ذلك النعمان بن عدى بن نظلة الذى ولى أعمال  
دست ميسان لعمر بن الخطاب فجرفته حياة اللهو بقوله:

ألا هل أتى الحساء أن حليلها      بيسان يسقى من زجاج وحتتم  
إذا شئت غنتى دهاقين قرية      وصناجة تجئو على حرف ميسم  
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى      ولا تسقنى بالأصغر المتثلم  
لعل أمير المؤمنين يسوءه      تنادمنا بالجوسق المتهدم<sup>(٢)</sup>

ويبلغ الأمر عمر فقال: «وايم الله . . . قد ساءنى ذلك» . . . وكتب إليه فعزله<sup>(٣)</sup>.

وعندما بلغ عمر أن بعض الجند فى الشام قد انصرفوا إلى الخمر كتب بأن يطبخ  
كل عصير بها حتى يذهب ثلثاه، فأخذ خلان الخمر يرثونها، ضائقين بهذا الأمر  
الصارم، كقول ذى الكلاع الذى شهد اليرموك، وكان السبب المباشر فى هذا الأمر:

ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى      وليس على صرغ المنون بقادر  
ضبرت ولم أجزع وقد مات إخوتى      ولست على الصهباء يوما بصابر  
رماها أمير المؤمنين بحتفها      فخلانها يكون حول المعاصر  
فلا تجلدوهم واجلدوها فإنها      هى العيش للباقي ومن فى المعاصر<sup>(٤)</sup>

(١) الإصابة ج ٢ ص ٥٦.

(٢) الإصابة ج ٦ ص ٢٤٣، ياقوت ج ٤ / ٧١٤.

(٣) الإصابة ج ٦ ص ٢٤٣.

(٤) الإصابة ج ٢ ص ١٨٣، ج ٧ ص ٧٩.

وأسهم الرجز بنصيب في تصوير هذه الألوان الجديدة في الشعر، وإن كان ضئيلا، ولكنه يعبر عن هؤلاء الشعراء الذين اتخذوه سبيلا إلى التعبير. ورأينا أن نغمات الرجز لا تصلح لحمل مشاعر الحنين، التي تفترق أوتارها في رقبتها وحزنها عن أوتاره في عتقوانها ودويها إلا أنه صور انطباع الشعراء وتأثرهم ببعض المشاهد الغريبة في البيئات الجديدة كما صورها الشعر.

وكان الفيل: أكثر هذه المشاهد لفتا للرجاز، فذكروه في أرجازهم ووصفوه. وهذا أحدهم يصفه لنا وصفا دقيقا، حتى لكأننا نراه أمامنا فيقول:

أجرد أعلى الجسم منه أضخم	يجر أرحاء ثقالا تحطم
ما تحتها من قرضها وتهشم	وحنك حين يمد أفقم
ومشفر حين يمد سرطم	يرده في الجوف حين يطعم
لو كان عندي سبب أو سلم	نجيت نفسي جاهدا لا أظلم (١)

وهذا آخر يصفه فيشبه أذانه بالمناديل فيقول: -

من يركب الفيل فهذا الفيل	إن الذي يركبه محمول
على تهاول لها تهويل	كالطود إلا أنه يجول

وأذنه كأنها مندبل (٢)

وسجل الرجز ما حدث عام الطاعون، والخرج الذي عاناه المسلمون في النزوح إلى الأماكن الموبوءة أو الخروج منها، وما شاع بين الناس آنذاك من استسلام لقضاء الله، فإنما يفر من فر من قضاء الله إلى قضاء الله، وحاول بعض الناس الفرار منه خوفا وفرعا، فأهاب بهم البعض أن يذعنوا للقضاء. فيروى: أن رجلا خرج على حمار فارا من الطاعون، فإذا بمن يحدو به يقول:

(١) الحيوان ج ٧ ص ١٧٢.

(٢) نفس المرجع.

لن يعجزوا الله على حمار ولا على ذى غرة مطار

قد يصبح الموت أمام السارى<sup>(١)</sup>

وأزمع رجل آخر الخروج فرارا من الطاعون أيضا فتردد بعد أن هم، وحدا به حاد يقول:

يايها المشعر هما لا تهيم إنك إن تكتب لك الحمى تحمم<sup>(٢)</sup>

وكذلك عبر الرجز عن زكوب المسلمين الماء. فهذا مالك بن عامر أول كتيبة عاصم بن عمرو التي عبرت دجلة إلى المدائن يستحث الناس على العبور، ويذكرهم بما أعد لهم من أجر وثواب، ونصر وهدم الله به، وخسران لأعدائهم فيقول:

امضوا فإن البحر بحر مأمور والأول القاطع منكم ماجور

قد خاب كسرى وأبوه سابور ما تصنعون والحديث مأثور<sup>(٣)</sup>

وهكذا استخدم الفاتحون الذين أنطقتهم الفتوح بالشعر والرجز في التعبير عن الأغراض المختلفة التي يستخدم فيها القصيد، فوصفوا فيه البطولات، وأشادوا بجهادهم، واستخدموه في الرثاء، ووصف المشاهد، وما إلى ذلك من الألوان، التي لم يطرقها الرجز من قبل، وكانت وقفا على القصيد. ويرى الدارس: أن هذه لم تكن إلا مقدمة لاستخدامه فيما بعد، كقالب جديد، لا يقتصر على ألوانه الضيقة التي عرف بها في الجاهلية، في الحرب، والهداء، والمفاخرة<sup>(٤)</sup>. فيصبح عند العجاج والأغلب العجلى وأبى النجم قالباً موازيا للشعر، يحتفلون به ويطورونه تطويراً. فضلا عن دوره الكبير الذي ظل يؤديه في التعبئة الروحية والمعنوية للجند في أثناء القتال.

وهكذا يدهش من يطالع شعر الفتوح في هذه الألوان الجديدة، عندما تطالعه تلك الآثار السريعة للاحتكاك الحضارى في الميادين والأمصار المفتوحة، التي تركت ميسمها على الشعر، بعد أن أثرت في قائله أثرا سريعا وموقوتا، ولكنه ملحوظ، برغم الفترة القصيرة التي استغرقها هذا الاحتكاك.

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٥٢١.

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٢٥٢١.

(٣) أسد الغابة ج ٤ ص ٢٨٢.

(٤) الأغاني (المساعي) ج ٨١ / ص ١٦٤.



## الفصل الثاني

### الطوابع الإسلامية في شعر الفتوح

#### ١ - صدور الشعر عن روح الإسلام

ليس ثمة شك يقتضى التدليل والبرهان على أن الإسلام قد خلق قيما جديدة في حياة العرب، وأن هذه القيم قد امتد أثرها إلى كافة مجالات الحياة العربية ومظاهرها، بما في ذلك الشعر الذى طبع بطوابع إسلامية جلة في شكله ومضمونه.

فقد أدت ظروف الفتح المادية والنفسية إلى إحداث تغيير في شكل الشعر الذى صدر في الفتوح. فاختلفت المقدمات الغزلية والطللية، وانكشفت القصائد فصارت مقطعات قصيرة، فضاقت من ثم عن استيعاب أكثر من غرض واحد من أغراض الشعر، لتكون متفقة مع قصر النفس الشعري، بسبب اهتمامات القتال، ولتطير على السنة الشعراء العاديين الذين راحوا يودعون الأبيات القصيرة من القصيد والرجز مشاعرهم، ويتخذونها أداة سريعة للتعبير عن ذوات أنفسهم، وحمل ما بنفوسهم من أحاسيس.

ولعل الطوابع الإسلامية التى طبعت المضمون في هذا الشعر أوضح الطوابع التى تعرض للتأثر بها وأعمقها على الإطلاق. فلو تصفح الدارس شعر الجهاد وهو يمثل ككرة شعر الفتوح لوجده في مجموعته يذهب في الفخر، والإشادة ببلاء المسلمين، وتصوير نكايتهم بالعدو كمجموع متحد الوجدان. ولذا يسم الشعر في كثيره استخدام ضمير الجماعة بشكل ملحوظ.

وهذه الجماعة بطبيعة الحال ليست القبيلة أو العشيرة، وإنما هي جماعة المسلمين الكبيرة، التى استوعبت كل العلاقات العصبية والقبلية، القائمة على وشائج القربى والدم والنسب، فنسختها في إطار وجداني قومي وفكري، يقوم على أوامر الإنسانية والأخوة والعقيدة والمساواة، وراح الشعراء يصدرون عنه.

ونحن بطبيعة الحال لا نعدم أن نجد شعراء يتغنون بقبائلهم، غير أن ذلك لم يحدث إلا نادرا، عندما يتصادف أن يجتمع نفر كبير من قبيلة بعينها في ميدان معركة واحدة، كما حدث لجمع بنى أسد، الذين استشهد منهم عدد كبير في مقتلة الفيل يوم القادسية، وأخذ بعض شعرائهم يصورون ما قاموا به من الفداء، ويشيدون بما أبدوا من ضروب البسالة والتضحية، ويفخرون بقومهم، ولكنهم يفخرون بإسلامهم، ويطاعتهم لربهم وبذلهم في سبيله، كما في مقطوعة نافع بن الأسود التميمي، التي يقول فيها عن قومه:

هم أهل عز ثابت وأرومة  
وهم يضمنون المال للجار ماثوى  
وهم من معد في الذرا والغلاصم  
وهم يطعمون الدهر ضربة لازم  
ثم يقول:

ولما أتى الإسلام كاتبوا أئمة  
إلى هجرة كانت سناء ورفعة  
فجاءت بهم في الكائب نصره  
فصفوا لأهل الشرك ثم تكببوا  
وبادوا معدا كلها بالجرائم  
لباقئهم فيهم وخير مراغم  
فكانوا حماة الناس عند العظامم  
وطاروا عليهم بالسيف الصوارم<sup>(١)</sup>  
ويظهر ذلك بوضوح في قول الأسود بن سريع التميمي في الفخر بيني أبيه إذ يقول يوم الأهواز:

لعمرك ما أضاع بنو أبينا  
أطاعوا ربهم وعصاه قوم  
ولكن حافظوا فيمن يطبع  
أضاعوا أمره فيمن يضيع<sup>(٢)</sup>  
وليس يعنى وجود ضمير الجماعة في قصائد الجهاد اختفاء ملامح الفرد الشخصية في هذا الشعر، وإنما الحقيقة. أن الفرد كان يصدر في بعض هذا الشعر عن ذات نفسه مع اعتبار هذه الذات جزءا من الجماعة التي تمثل ضميرها فصدر عنها في صدوره عن

(١) الإصابة ج ٦ ص ٢٦٢ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٢٥٤١ .

ذاته، واشتق معانيه من وحيها، وهو حينئذ: إنما يفخر بنفسه من حيث هو فرد منها، ليعود عليها كل ما يذكر عن نفسه. فهو لا يذكر شيئاً ليبين تفرد به دون الجماعة، وإنما يعلن: أنه صورة ومثل على جميع أفرادها.

فهذا عبدالله بن عتبان الذى افتتح جى من أعمال أصبهان يفتخر بنفسه فى بيت واحد، ثم إذا به يرتد إلى الوجدان الجماعى، ليفخر بجماعة المسلمين وبلائهم فيقول:

من مبلغ الأحياء عنى فإننى      نزلت على جى وفيها تفاقم  
حجزناهم حتى سروا ثم انتزوا      فصددهم عنا القنا والصنوارم  
وجاد لها القاذوسقان بنفسه      وقد دهدمت بين الصفوف الجماجم

ثم لا يلبث أن ينزع إلى تصوير ما أذاقه بيده لكبير القوم فيقول:

فثاورته حتى إذا ما علوته      تفادى وقد صارت إليه الخزائم  
ويعود إلى الوجدان الكبير فيقول:

وعادت لقوحا أصبهان بأسرها      يدر لنا منها القرى والدراهم

ثم ينزع إلى الحديث عن نفسه كمستول عن هذه الجماعة فى تقبل جزية المهزومين فيقول:

وإنى على عمد قبلت جزاءهم      غداة تفادوا والعجاج فواقم

ويرجع إلى الحديث عن جماعة المسلمين التى استحقت النصر كلها وزكا جهادها، فيقول:

ليزكوا لنا عند الحروب جهادنا      إذا انتطحت فى المازمين الهمام<sup>(١)</sup>

وهذا سراقه بن عمرو الذى أرسله أبو موسى الأشعري لفتح باب الأبواب يفخر بنفسه، ثم لا يلبث أن يطلق الفخر فى مجموع المسلمين، فيقول:

(١) الإصابة ج ٦ ص ٢٦٢.

ومن يك سائلا عنى فإنى  
 يباب الترك ذى الأبواب دار  
 نذود جموعهم عما حوينا  
 سدنا كل فرج كان فيها  
 وألحنا الجبال جبال قبيج  
 وبادرنا العدو بكل فيج  
 على خيل تعادى كل يوم  
 بأرض لا يواتيها القرار  
 لها فى كل ناحية مغار  
 ونقتلهم إذا باح السرار  
 مكاثرة إذا سطع الغبار  
 وجاوز دورهم منا ديار  
 نناهبهم وقد طار الشرار  
 عتادا ليس يتبعها المهار<sup>(١)</sup>

وليس أدل على ما نحن بصدده من قول المثنى بن حارثة، وهو يرى أفناء العروب  
 وأحياءها جميعا جنودا غير متميزين فى جنده، وكأنهم أبناء أم واحدة، هى الوغى:

صبحنا بالخنفس جمع بكر  
 بفتيان الوغى من كل حى  
 وحيا من قصاعة غير ميل  
 تبارى فى الحوادث كل جيل<sup>(٢)</sup>

وهكذا يخفت صوت القبليات، فلا نعود نسمع بتميم أو مذحج إلا لماما.  
 وأخذت تعبيرات جديدة تظهر فى الدلالة على الفاتحين، فهم فتیان الوغى، فى قول  
 المثنى. وهم جند السلم، فى قول القعقاع:

فما فتت جنود السلم حتى  
 رأينا القوم كالغنم السوام<sup>(٣)</sup>

وهم الفتیان الكماة فى قول عاصم بن عمرو:

صبحناهم بكل فتى كمنى  
 وأجرد سابح من خيل عاد<sup>(٤)</sup>

وهم رجال هاجروا نحو ربهم، فى قول عاصم أيضا:

(١) ياقوت ج ١ ص ٤٣٧.

(٢) ياقوت ج ٢ ص ٤٧٣.

(٣) ياقوت ج ٣ / ١٩٤.

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٢١٧٤.

لعمرى وما عمرى على بهين      لقد صبحت بالخرى أهل النمارق  
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم      يجوسونهم ما بين درتا وبارق<sup>(١)</sup>

وهم الأنصار فى قول أبى محجن الثقفى يوم الجسر وهم الفتية أيضا:  
مررت على الأنصار وسط رحالهم      فقلت ألا هل منكم اليوم قافل  
إلى فتية بالطف نيلت سراتهم      وغودر أفراس لهم ورواحل<sup>(٢)</sup>  
وهم جموع المسلمين فى قول عياض بن غنم:

من مبلغ الأقوم أن جموعنا      حوت الجزيرة يوم ذات زحام<sup>(٣)</sup>  
وهم جند الله، كما يقول زياد بن حنظلة:  
وإذ أرتبون الروم يحمى بلاده      يحاوره قرم هناك يساجله  
فلما رأى الفاروق إزمان فتحها      سما بجنود الله كيما يصالوه<sup>(٤)</sup>

وصدر الشعر فضلا عن روح الجماعة بوحى من المثل الإسلامية التى طبقت فى  
الفتوح والأمصار المفتوحة، وترى فى هذا الصدد أمثلة كثيرة.

فنتيجة لتطبيق المساواة التى دعا إليها الإسلام لم يعد فرق بين عربى وأعجمى إلا  
بالتقوى. فوجد المسلمين فى فتح جند يسابور يهبون أحد العبيد بها - وكان قد أسلم من  
قبل - شرفا لم يمنحوه لغيره من عظماء المدينة، فأجار مكثف هذا مواطنيه من سفك  
دمائهم، وكتب اسمه أمانا لهم قبله المسلمون. فقال عاصم بن عمرو يذكر هذه الشفاعة  
وما تدل عليه من معان:

لعمرى لقد كانت قرابة مكثف      قرابة صدق ليس فيها تقاطع  
أجارهم من بعد ذل وقلة      وخوف شديد والبلاد بلاقع

(١) ياقوت ج ٤ ص ٥٣٢.

(٢) أغانى الساسى ج ٢١ / ١٤١.

(٣) البلاذرى ص ٢٥١ ، ياقوت ج ٢ / ٧٤.

(٤) الطبرى ١ / ٥ / ٢٤١١.

ورد أمورا كان فيها تنازع  
فقال بحق ليس فيه تخالغ<sup>(١)</sup>

فجاز جوار العبد بعد اختلافنا  
إلى الركن والوالى المصيب حكومة

وكذلك أخذت آثار الديمقراطية الإسلامية تظهر فى الشعر، عندما يناقش  
عبدالرحمن بن حنبل الخليفة حساب فىء المسلمين، وتتهمه بتبديده، وتوزعه بين أهله  
وخاصته، فيقول:

وأحلف بالله جهد اليمين	ما ترك الله أمرا سدى
ولكن خلقت لنا فتنة	لكى نبتلى بك أو نبتلى
دعوت الطريد فأذنته	خلافاً لما سنه المصطفى
ووليت قرباك أمر العباد	خلافاً لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس الغني	ممة أثرته وحميته الحمى
ومالا أتاك به الأشعري	من الفىء أعطيته من دنا
فإن الأميين قد بينا	منار الطريق عليه الهدى
فما أخذنا درهما غيلة	ولا قسما درهما فى هوى <sup>(٢)</sup>

وكذلك أخذت شكوى المسلمين من العمال والأمراء تنظم شعرا إلى الخليفة،  
كأبيات يزيد بن الصعق إلى عمر بن الخطاب، يغيره فيها ببعض الولاء، الذين استغلوا  
مناصبهم ونهبوا أموال المسلمين، ويطلب منه أن يجردهم منها، أو يشاطرهم فيها،  
فيقول:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة	فأنت أمين الله فى النهى والأمر
وأنت أمين الله فىنا ومن يكن	أمينا لرب العرش يسلم له صدرى
فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى	يسيغون مال الله فى الأدم والوفر

(١) ياقوت ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) الاستيعاب ٤١٠ ، الأغانى ج ٦ / ٢٦٨ .

فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه  
ولا تسين النافعين كلاهما  
وما عاصم منها بصغر عناية  
وأرسل إلى النعمان فاعرف حسابه  
وشبلا فسله المال وابن محرش  
فقاسمهم - نفسى فداؤك - إنهم  
ولا تدعونى للشهادة إننى  
تثوب إذا أبوا ونغزو إذا غزوا  
وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر  
ولا ابن غلاب من سرقة بنى نصر  
وذاك الذى فى السوق مولى بنى بدر  
وصهر بنى غزوان إنى لذو خبر  
فقد كان فى أهل الرساتيق ذا ذكر  
سيرضون إن قاسمتهم عنك بالشر  
أغيب ولكنى أرى عجب الدهر  
فأنى لهم وفر ولسنا ذوى وفر<sup>(١)</sup>

وراح بعض الشعراء يقارنون بين الأمراء فيهم والصحابة الراشدين، ويوازنون بين عدلهم وحسن سياستهم للأمة وما يجدون من أمرائهم فى الأمصار من مخالفة عن سنتهم كما يظهر فى قول النابغة الجعدى لأبى موسى الأشعرى والى البصرة:

فإن يكن ابن عفان أمينا  
فيا قبر النبى وصاحبيه  
ألا صلى إلهكم عليكم  
فلم يبعث بك الجبر الأمينا  
ألا يا غوثنا لو تسمعونا  
ولا صلى على الأمراء فينا<sup>(٢)</sup>

وظهر فى شعر الفتوح أيضا بعض الآثار الناتجة عن تطبيق الحدود الإسلامية على المنحرفين فى الأمصار، ومن أمثلة ذلك: أن نقب بعض شباب الكوفة جدار ابن الحيثمان الخزاعى وقتلوه، فكتب عثمان بقتلهم، وفى هذا يقول عاصم بن عمرو مشيدا باتباعه محكم الفرقان فى عقابهم:

إن ابن عفان الذى جربتم  
ما زال يعمل بالكتاب مهيمنا  
فطم اللصوص بمحكم الفرقان  
فى كل عنق منهم وبنان<sup>(٣)</sup>

(١) البلاذرى ص ٣٨٤ ، الإصابة ج ٢ ص ٩٦ ، ج ٦ ص ٣٦١ .

(٢) الأغانى (ساسى) ج ٤ ص ١٣٧ .

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٢٨٤١ .

ومن هذه الآثار أيضا: ما قاله ضابئ بن الحارث البرجمي، الذي سجن بالكوفة بأمر من عثمان بن عفان، فقد استعار من قوم من الأنصار كلبا من كلاب الصيد يدعى «فرحان»، وحبس الكلب عن أصحابه ورفض إعادته إليهم، فكأثروه وانتزعوه منه، فهجاهم بقوله:

تجشم دونى وفد فرحان خطة      تضل لها الوجناء وهى حسير  
فباتوا سباعا ناعمين كأنما      حباهم بيت المزيان أمير  
فكلبكم لا تركوا فهو أمكم      فإن عقوق الأمهات كير<sup>(١)</sup>

وأثر فيهم هذا الهجاء المقذع، فاستعدوا عليه عثمان، الذي كتب إلى الوليد بن عقبة بحبسه واستقل ضابئ الحبس وتبا بموته فى السجن وتحقق ظنه، حيث قال:

هممت ولم أفعل وكدت وليتى      فعلت ووليت البكاء حلائله  
وقائلة قد مات فى السجن ضابئ      ألا من لخصم لم يجد من يجادله  
وقائلة لا يبعد الله ضابئا      فنعم الفتى تخلو به وتحاوله<sup>(٢)</sup>

وكان كعب بن ذى الحبكة النهدي فى الكوفة يعالج بالسحر والشعوذة وبلغ عثمان ذلك، فأرسل إلى الوليد أن يتبين أمره، فإن كان حقيقة ضربه موجعا، ثم غره إلى دنباوند من أعمال الرى، ففعل الوليد، فقال فى تغريبه:

لعمري لئن أطردتنى ما إلى الذى      طمعت به من سقطتى لسبيل  
رجوت رجوعى يا ابن أروى ورجعتى      إلى الحق دهرا غال حلمك غول  
وإن اغترابى فى البلاد وجفوتى      وشتمى فى ذات الإله قليل  
وإن دعائى كل يوم وليلة      على بدنباوندكم لطويل<sup>(٣)</sup>

وكان هذا الشاعر من رءوس الفتنة فى قتل عثمان.

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٣٣.

(٢) الطبرى ج ٥ / ص ٣٠٣٤.

(٣) ياقوت ج ٢ / ٦٠٩، الطبرى ج ٥ / ٣٠٣٣.

لعل أقرب تسمية للمسلمين في شعر الفتح كله ما أسماهم به زياد بن حنظلة من أنهم رجال الله، فهذه التسمية أكثر انطباقا عليهم وعلى الحقيقة. إذ إنهم أدركوا هذا غمام الإدراك يوم أن اتخذوا هذه العقيدة دينا، ويوم توحدت كلمتهم على هذا الدين الذي بث فيهم أحاسيس ومشاعر سامية، وأبدلهم من بعد ضعف قوة، وجعلهم يشعرون بأنهم دائما منتصرون ماداموا جندا في سبيل إعلاء كلمته. وقد تغلغل في مكان الاعتقاد منهم صدق الداعى الذى دعاهم إلى سعادة الدنيا والآخرة. فتأكد لهم أن الآخرة خير وأبقى، مادام الله قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيله فيقتلون ويقتلون. وأن الذين في سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

واستقر في موضع اليقين منهم: أن الله عز وجل منزل نصره عليهم، إذا صدقت منهم النيات في لقاء عدوهم، فيفوز المقتول منهم بسعادة الآخرة، ويحرز الباقي سعادة الدنيا. ولهذا كان شعارهم دائما قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة].

ولهذا فإن الفاتحين المؤمنين لم يحرصوا على الحياة حرصهم على الفوز بالجنة، ولم يجزعوا من الموت، فإن كل شيء قدر تقديرا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف].

وقد تجلت هذه المعاني في الشعر الذى صدر عن الفاتحين منطلقهم إلى الجهاد، يردون فيه على ذويهم الذين تمسكوا بهم وناشدوهم البقاء، واستعدوا الخليفة أن يردهم إذ لا عائل لهم سواهم، فكانوا يجيبون بأن الله قد دعاهم من قبل، وبأنهم استجابوا لداعيه.

وقد ظل هذا الإحساس يلازم المجاهدين فى الميدان. فكانت أسمى ملحمة فى تاريخ العقيدة عرفها العالم إلى اليوم، إذ كان بعض المحاربين يشرون أنفسهم صائمين ويستشهدون، كما فعل المهاجر بن زياد الحارثى وغيره<sup>(١)</sup>. فقد كانوا لا يرون أمامهم إلا

(١) البلاذرى ص ٣٧٧.

ما وعد الله من الجنة والأجر العظيم، لا طلبه لهم إلا الموت أو النصر، ولا غاية بعد هذين من جاه أو ثروة، وما زالت آيات عروة ترن في أسماعنا إذ يقول:

فلا ثروة الدنيا نريد اكتسابها  
ألا إنها عن وفرها قد تجلت  
وماذا أرجى من كنوز جمعتها  
وهذى المنايا شرعا قد أظلت  
وأصبح همى فى الجهاد ونيتى  
فله نفسى أدبرت وتولت<sup>(١)</sup>

وهم لا يستشعرون أدنى ضجر أو ضيق بإزاء ما يلقون من مشاق الجهاد، ومن المنايا التى تحدث بهم من كل جانب، وإنما هم يحمدون هذه المشاق التى ساقتهم إليها عقيدتهم، ويشكرون الله عز وجل أن هداهم للإيمان، ويسألونه أن يوفقهم فى طاعته. يقول فى ذلك عروة بن زيد الخليل:

صبرت لأهل القادسية معلما  
ومثلى إذا لم يصبر القرن أصبر  
فطاعتهم بالرمح حتى تبددوا  
وضاربتهم بالسيف حتى تكررنا  
بذلك أوصانى أبى وأبو أبى  
كذلك أوصاه فلست أقصر  
حمدت إلهى إذ هدانى لدينه  
فله أسعى ماحييت وأشكر<sup>(٢)</sup>

ورائعة هذه الأهازيج التى كان يلقى بها المجاهدون وهم يلقون أعداء الله، ويعلمون فيها أنهم لا ييغون إلا الشهادة أو النصر، كما جاء على السنة أبناء الخنساء يوم القادسية، حينما ألقوا بأنفسهم إلى الموت واحدا إثر الآخر، وأجمعوا على هذا المعنى فى نهاية أراجيزهم، فقال الأول:

وأتم بين حياة صالحة أو مية تورث غنما رابحة<sup>(٣)</sup>

وقال الثانى:

إما لفوز بارد على الكبد أو مية تورثكم عز الأبد

فى جنة الفردوس والعيش الرغد<sup>(٤)</sup>

(١) ، (٢) الأخبار الطوال ص ١٤٨ .

(٣) ، (٤) الاستيعاب ص ٧٤٥ .

إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة فى سبيل الأكرم<sup>(١)</sup>

وينفس هذه الروح المؤمنة كانوا يواجهون الموت، فإن أدركهم فى عزيز لديهم لم يجزعوا. وما يجدى الجزع ولكل أجل كتاب، إن الموت حق، وأمر لا بد من نفاذه ضربة لازب. ولا يملكون أمامه إلا الإيمان والتسليم. وعلام البكاء وسوف يبكى على الباكين فى يوم قريب. . . بمثل هذه المشاعر كانوا يواجهون الموت، كما واجهه أبو ذؤيب بهذا الإيمان العميق فى قوله:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها      ألفيت كل تميمة لا تنفع  
لا بد من تلف مقيم فانتظر      أرض قومك أم بأخرى المصرع  
ولقد أرى أن البكاء سفاهة      وسوف يولع بالبكا من يفجع  
وليأتين عليك يوم مرة      يبكى عليك مقنعا لا تسمع<sup>(٢)</sup>

ونفس هذه الروح نجدها فى مرثية كثير بن الغريزة، إذ يقول:

ورب أخ أصاب الموت قبلى      بكييت ولو نعتت له بكاني  
فلا تستبعدا يومى فإنى      سأوشك مرة أن تفقدانى<sup>(٣)</sup>

وكانت تشيع فى رثائهم - إلى جانب نغمة التسليم والإيمان - نغمة رضاء واستبشار واستحسان، لما قدمه الشهيد باستشهاده، وما تحمله من تضحيات، فعليه إذن أن ينام قرير العين، هائئ البال. يقول القعقاع فى رثاء خالد بن يعمر:

حضض قومى مضر حتى بن يعمر      فله قومى حين هزوا العواليا  
وما خام عنها يوم سارت جموعنا      لأهل قديس يمنعون المواليا<sup>(٤)</sup>

(١) الاستيعاب ص ٧٤٥.

(٢) ديوان الهذليين ج ١ ص ٣.

(٣) البلاذرى / ٢٧٩، ياقوت ج ٢ / ١٤٩.

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢٩.

وهذا خليل بن المنذر يدعو لهؤلاء الذين خضبوا بدمائهم الرماح يوم طاووس  
فيقول:

فلا يبعدن الله قوما تتابعوا      فقد خضبوا يوم اللقاء العوالي<sup>(١)</sup>

وهذا عبدالله بن سبرة الجرشي - الذي قطع الأربطون يده يوم فلتاس - لا  
يشعر بالحسرة والندم على يده، إلا أنها تمنعه الجهاد، ولكن مادام بها بناتان وجرموز يقيم  
بها صدر القناة فلا بأس. وعلام يتحسر عليها وقد قامت بدورها فقطعت أوصال  
الأربطون قبل أن يقطعها وفي هذا يقول:

فإن يكن أربطون الروم قطعها      فقد تركت بها أوصاله قطعاً  
وإن يكن أربطون الروم أفسدها      فإن فيها بحمد الله منتفعا  
بناتان وجرموز أقيم بها      صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا<sup>(٢)</sup>

ومن المشاعر الإسلامية الخطيرة التي شاع أثرها في الشعر. ما ركزه الإسلام في  
العرب من إحساس بالقوة، وما أثمره عمق إيمانهم من اعتداد بأنفسهم، وتقدير  
لذواتهم، واستهانة بقوى الباطل، لإيمانهم بأنهم على حق وفي سبيله.

وقد أبدلهم الإسلام عن إحساسهم بالضعف والهيبة أمام الفرس والروم في  
الجاهلية إحساساً بالقوة، وشعروا بأنهم الأعلون، وإن على اكتافهم تقع مسئولية تبليغ  
الرسالة، التي أضحوا قوامين عليها إلى العالمين، بما في ذلك دولة فارس ودولة الروم.

وبغير هذا الإحساس لم يكن يتسنى للعرب - وهم فل حروب داخلية حصدتهم  
حصداً، ولم يكن يمكنهم وهم على ما هم عليه من ضعف العدة وضيق ذات اليد  
وقلة العدد بالقياس إلى هاتين الدولتين - أن يستبيحوا حماهما أو أن يدوسوا حصونهما  
ومعاقلهما.

فقد قلب هذا الإحساس - بالثقة والمسئولية - ميزان الموقف رأساً على عقب.  
فإذا بالحفاة العرابة رعاة الإبل وأكلة الحنظل يطبقون من كل جانب على سادة الأمم  
القريب، وهم على ما هم عليه من ضخامة الثروة، والمدنية والعمران، وانفساح الرقعة،

(١) ياقوت ج ٢ ص ٤٩٤.

(٢) الإصابة ج ٥ ص ٦٠ و ٩٢.

والبطش والقوة. وإذا بهم يسرقونهم سوقا إلى حظيرة الإسلام، ويزلزلون عروشهم، ويأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا حكموا فيهم سيوفا مؤمنة تصرعهم في كل وقعة.

أجل كان العرب في جميع أطوار حياتهم - بحيال دولتى الفرس والروم - لا يهجمون في نفوسهم هاجس بالاستطالة عليهم أو مساماتهم، وإنما كان قصارى من سمت به همته إلى الملك منهم أن يكون تابعا لهما خاضعا لسيطرتهما، كما كان المناذرة عمالا للفرس، والغساسنة عمالا للروم.

ولكن: أما وقد جاءهم الإسلام بهذه الأحاسيس، فبث فيهم تلك المشاعر، ووجد كلمتهم، وأمد لهم في الأمل فما النصر إلا من عند الله وإن ينصرهم فلا غالب لهم. فأولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون.

ولو رجعنا إلى أقوال قوادهم ورسلمهم إلى كبراء هاتين الدولتين العظيمتين وقوادهما لوجدناها تنطق بهذه الآمال وبثلك الثقة، كما يظهر في قول المغيرة بن شعبة لرستم لما خوفه مغبة الأمر إذ قال: «يدنخل من قتل منا الجنة، ومن قتل منكم النار، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم»<sup>(١)</sup>.

وهذا عبادة بن الصامت وقد خوفه المقوقس قوة الروم وكثرة عددهم على حين أن العرب قلة لا يقدرّون عليهم يواجهه في ثقة وإيمان وبسالة بقوله: «يا هذا.. لا تغرن نفسك وأصحابك. أما ما تخوفنا به من جموع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم فلعمري.. ما هذا الذى تخوفنا بالذى يكسرنا عما نحن فيه، وإن كان ما قاتم حقا فذلك - والله - أرغب ما يكون، فى قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته. وما شئ أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك»<sup>(٢)</sup>. وتدور هذه الروح. فى كتب خالد بن الوليد وغيره من قواد المسلمين إلى قواد الفرس وعظمائهم. وقد سكب بعض الفاتحين هذه الروح فى أشعارهم، فصوروا أعداء المسلمين وسادتهم بالأمس فى صور تدل على

(١) الطبرى ٥/ ٢٢٧٩.

(٢) المقرئى ج ٢ / ٢٩٠ ، ابن عبد الحكم ٥٩ / ٦٠.

هوانهم على المسلمين، وخذلانهم أمام الحق الأبلج، فهم أناس لا يدافعون عن فكرة كما يفعلون، ولا يحامون عن الحقيقة كما يحامون.

والفرس مجوس لا يعرفون الله الذى هدى العرب إلى الإسلام، وليس لهم كتاب يهديهم إلى الحق، فهم فى معصية الله، ولكن المسلمين فى طاعته يقول الأسود بن سريع التميمي:

أطاعوا ربهم وعصاه قوم      أضاعوا أمره فيمن أضاعوا  
مجوس لا ينههما كتاب      فلاقوا كبة فيها قبوع<sup>(١)</sup>

وهذا أوس بن بجير الطائي، يقرر هذه الحقيقة إذ يقول:

ليت أبا بكرى يرى من سيوفنا      وما نجتلى من أذرع ورقاب  
ألم تر أن الله لا رب غيره      يصب على الكفار سوط عذاب<sup>(٢)</sup>

وقد راح الفاتحون يصورون الفرس فى صور مختلفة، معبرين بذلك عن استهانتهم بهم واحتقارهم. فهذه قصورهم قد آل ما بقى منها إلى المسلمين، وخرّب منها ما خرب، حتى عادت كأضراس الكلاب، كما يقول عاصم بن عمرو فى قصور الحيرة:

حصرنا فى نواحيها قصورا      مشرفة كأضراس الكلاب<sup>(٣)</sup>

وقد حظهم المسلمون من هذه القصور فزلزلوا عروشهم، كما يقول القعقاع بن عمرو:

حططناهم منها وقد كان عرشهم      يميل به فعل الجبان المخالف<sup>(٤)</sup>

وهذه بلادهم المنيعه الحصينة التى كانت حراما لا يرام بالحشود، أصبحت حلالا للمسلمين مباحا، وأصبح تمر الترسيان الذى لم يكن يأكله إلا الأكاسرة طعاما حلالا لهم، كما يقول عامر بن عمرو:

(١) الطبرى ج ٥ / ٢٥٤١.

(٢) الإصابة ج ١ / ١١٧.

(٣) ياقوت ج ٢ / ٢٧٥.

(٤) الطبرى ج ٤ / ٢٠٤٧.

فظلت بلاد الترسيان وتمره  
أبحنا حمى قوم وكان حماهم  
مباحا لمن بين الديار الأضافر  
حراما على من رامه بالعساكر<sup>(١)</sup>

وها هم المسلمون يغلبون ملوك الجزيرة، فيشلون حركتهم، ولا يستطيعون معاونة  
حلفائهم من الروم، كما قال عياض بن غنم:

غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهاوا  
عن غزو من يأوى بلاد الشام<sup>(٢)</sup>

وهذه كنوز المرء كسرى، تلقى فى حجورهم، كما يقول نافع بن الأسود:

وانتشلنا خزائن المرء كسرى  
يوم ولوا وحاض منا جريضا<sup>(٣)</sup>

وها هم المسلمون يذيقونهم ما لم يقدرُوا وما لم يحتسبوا، فإذا بهم يتنادون بقبول  
الجزية صاغرين، كما يقول عبدالله بن بشير بن عامر:

غداة رأوا الخيل العرب مغيرة  
تقرب منهم أسدهن الكوالحا

تنادوا إلينا واستجاروا بعهدنا  
وعادوا كلابا فى الديار نوابحا<sup>(٤)</sup>

ويعبر عمرو بن مالك الزهرى عن هذا المعنى فيقول:

فنادوا إلينا عن بعيد بأننا  
ندين بدين الجزيرة المتواتر<sup>(٥)</sup>

وهذا الأسود بن قطبة يفخر بأن الفرس قد دفعوا إليه بقديّة الأسرى وأنفهم راغم،  
فيقول:

ألا أبلغا عنى الغريب رسالة  
فقد قسمت فينا فيوء الأعاجم

وردت علينا جزية القوم بالذى  
فككتنا به عنهم ولاة المعاصم<sup>(٦)</sup>

(١) ياقوت ج ٤ / ٧٧٤.

(٢) ياقوت ج ٢ / ص ٧٤.

(٣) الطبرى ٥ / ٢٤٣٤.

(٤) ياقوت ج ٢ ص ٤١٢.

(٥) ياقوت ج ٢ / ٦٥.

(٦) الإصابة ج ١ / ١٠٨.

وبهذا الإحساس وحده نفى المسلمون فارسا عما أرادت وأبادوها، وكانت ثابتة الأركان عمدة السلطان، كما يقول عمرو بن شأس الأسدي:

نفينا فارسا عما أرادت      وكانت لا تحاول أن تريم<sup>(١)</sup>

ولم تعد فارس عرين أسود، وإنما سارت بأيدي المسلمين حظيرة كلاب نابحة، لا يقيم لها المسلمون وزنا، كما يقول الراجز:

وإنما تلقون عند الصائحة      من آل ساسان الكلاب النابحة<sup>(٢)</sup>

وهي لاتزال تعوى تحت ضربات المسلمين في معارك حامية الأوار، كتلك التي قادها النعمان بن مقرن يوم أربك حيث يقول:

عوت فارس واليوم حمام أواره      بمحتفل بين الدكاك أربك<sup>(٣)</sup>

والفرس ليسوا إلا أنعاما، لا حول لهم ولا قوة أمام المسلمين الذين يصرعونهم على الآكام، كما يقول زهرة بن حوية:

وصرعوا الفرس على الآكام      كأنهم نعم من الأنعام<sup>(٤)</sup>

وهم أيضا أجساد نجمة مجوسية مشرقة، كما ينعتهم نافع بن الأسود في قوله:

فضضت جموع الفرس ثم أعتهم      فتبا لأجساد المجوس النجاس<sup>(٥)</sup>

وهذا مجد فارس تهدمت أركانه، ولم يعد هنالك إلا الإماء والثواكل الناتحات تبكين وتعلن على المجد الضائع تحت سيوف المنتصرين، يقول القعقاع بن عمرو:

فنحن الألى فزنا بحلوان بعدما      أرنت على كسرى الإما والحلائل<sup>(٦)</sup>

(١) الاستيعاب / ٧٤٥.

(٢) ياقوت ج ١/ ١٨٥.

(٣) الطبرى ٥/ ٢٤٤٩.

(٤) الطبرى ٥/ ٢٤٧٢.

(٥) ياقوت ج ٢/ ٣١٧.

(٦) الطبرى ج ٥/ ٢٣٠٣.

ويقول عمرو بن شأس الأسدي:

وداعية بفارس قد تركنا      تبكى كلما رأت الهلالا<sup>(١)</sup>

وكذلك كان شأن الروم، إذ انهارت دولتهم، وأقبلت الشام العريضة بما عليها  
ومن عليها تلقى بنفسها وبخيراتها إلى المسلمين، كما يقول زياد بن حنظلة:

وأقبلت الشام العريضة بالذي      أراد أبو حفص وأزكى وأزيدا  
فقسط فيما بينهم كل جزية      وكل رقاد كان أهنا وأحمدا<sup>(٢)</sup>

وعندما طرد المسلمون أرطوبون من أجنادين إلى بيت المقدس شريدا فطموا الروم  
عن الشام، كما يقول زياد أيضا:

ونحن تركنا أرطوبون مطردا      إلى المسجد الأقصى وفيه حسور  
فطمنا به الروم العريضة بعده      عن الشام أدنى ما هناك شطير<sup>(٣)</sup>

وها هي دولة الفرس تبيد، ويصبح الفرس رعاة الشياه للمسلمين، وكان ملكهم  
كان حلما وليس هذا إلا بما نصر الله به المؤمنين، وما كانوا ليهتدوا إلا أن هداهم الله.  
يقول النابغة الجعدي:

يا أيها الناس هل ترون إلى      فارس بادت وجدها زعما  
أموا عييدا يرعون شاءكم      كأنما كان ملكهم حلما  
أو سبأ الخاضرين مأرب إذ      يينون من دون سيله العرما<sup>(٤)</sup>

وها هي دولة الروم تبيد وتصبح فينا للمسلمين، وعيشا خصيا لهم، يقول زياد  
ابن حنظلة:

وألقت إلينا الشام أفلاذ بطنها      وعيشا خصيا ما تعد مآكله  
أباح لنا ما بين شرق ومغرب      مواريث أعقاب بتها قرامله<sup>(٥)</sup>

(١) الطبرى ج ٥ / ٢٣٠٣ .

(٢) الطبرى ٥ / ٢٤١١ .

(٣) ياقوت ج ١ / ١٣٦ .

(٤) آمد الغابة ج ٥ / ٣ (ابن قتيبة) ج ١ / ص ٢٥٣ .

(٥) الطبرى ج ٥ / ٢٤١١ .

### ٣- معانى إسلامية خالصة

ولعل أكثر الطوايع الإسلامية مباشرة وأبرزها ظهورا في شعر الفتح محاولة تمثل بعض المعانى الإسلامية الخالصة، تمثلا قريبا من صورتها في آى الذكر الحكيم، كما حدث في شعر النابغة الجعدي، الذى اتخذ زوال دولة الفرس موضوعا له، فصوره معجزة من المعجزات الباهرة، التى وفق الله المسلمين إليها، حتى ليجعلنا نعتقد: أنه وضع أمامه آيات بعينها من الكتاب العزيز، وراح ينظمها نظاما، حافظ خلاله - جاهدا - على ألفاظها.

وهى محاولة طريفة، إذا تبعنا آياته لنرى إلى أى مدى تمثل هذه المعانى. يقول النابغة:

الحمد لله لا شريك له      من لم يقلها فنفسه ظلما<sup>(١)</sup>

وهذا معنى يتردد كثيرا فى القرآن الكريم، من مثل قوله عز وجل على لسان لقمان وهو يعظ ابنه ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان] ثم يأخذ فى تعداد الآيات الكونية فيقول:

المولج الليل فى النهار وفى      الليل نهارا يفرج الظلما

وكأنه يعنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ...﴾ [لقمان].

ثم ينتقل إلى آية أخرى من الآيات الكونية فيقول:

الخافض الرافع السماء على      الأرض ولم بين تحتها دعما

وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ...﴾ [لقمان] وينتقل إلى معنى آخر فيقول:

الخالق البارئ المصور فى السـ      أرحام ماء حتى يصير دما

من نطفة قدرها مقدرها

(١) اسد الغابة ج ٥ / ص ٣.

ثم عظاما أقامها عصب

ثم كسا الريش والعقائق أبش

ثم لحما كساه فالتأما

أرا وجلدا تخاله أدمأ

وهو يقصد بهذه الآيات، إلى التدليل على أن البعث حق، وكأنه يعنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ... ﴿٥﴾﴾ [الحج].

أو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون].

ثم يتحدث عن أنعم الله على الإنسان من كساء يوارى به سوءاته، مصداق قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ... ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف].

ثم يتحدث من بعد ذلك عن قدرته تعالى، في اختلاف الخلق، وأصواتهم، والوانهم، فيقول:

والصوت واللون والمعاش والـ أخلاق شتى وفرق الكلمأ

ذلك المعنى الذى تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِذَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم].

وهذا كله من أجل أن يدل على صحة البعث والنشور ليقول:

ثمت لا بد أن سيجمعكم

فأتمروا الآن ما بدا لكم

فى هذه الأرض والسماء ولا

والله جهرا شهادة قسما

واعتصموا إن وجدتم عصما

عصمة منه إلا لمن رحما

فهو يعنى: إحاطته سبحانه وتعالى بالخلق، وكأنه ينظر فى قوله عز وجل - على لسان نوح عليه السلام لابنه حين قال: ﴿ قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ... ﴾ (٤٣) [هود].

ويتهى ليذكر الفاتحين بالمعجزة التى أجزاها الله على أيديهم، فى إزالتهم ملك فارس فيقول:

يأيها الناس هل ترون إلى فارس بادت وجدها رغما  
أمسوا عيدا يرعون شاءكم كأنما كان ملكهم حلما  
أو سبأ الحاضرين مأرب إذ بينون من دون سيله العرما<sup>(١)</sup>

آية هذا: أن طوابع إسلامية قد طبعت الشعر الإسلامى فى الفتوح من جراء صدوره فى ظروف أثرت فى شكله، ونزعت به إلى التخفف من المقدمات الغزلية والظلمية، التى لا تتلاءم مع ما يتحمل الفاتحون من مسئوليات سامية وجادة، وما هم مشغولون به عما سواه. وقد أتاح هذا للرجز أن يصبح قالبا من قوالب الشعر، يتحمل موضوعات القصائد.

وكان من أبرز الطوابع التى طبعت المضمون الشعرى صدور الشعر عن روح الجماعة الإسلامية، وعن وجدانها الجماعى، الذى استنفد القوميات المحلية والعصبيات القبلية وصاغها صياغة جديدة، فى إطار جديد. كما صدر الشعر عن المثل الإسلامية الرفيعة، وعنى بنقلها، وصور تطبيق النظم الإسلامية فى الأمصار الجديدة.

كذلك طبع الشعر بمثل ما طبعت به النفوس المؤمنة من المشاعر الدينية، والأحاسيس الروحية السامية، التى تجلت فى الإيمان العميق بالله، والحرص على الفوز بما وعد، والاستسلام لقضائه، وما بثه الإسلام فى العرب من اعتزاز بأنفسهم تضاءلت أمامه هبة الدول، التى تسلطت عليهم بالأمس فأدالوها وسادوها، بما دفعه الإسلام فيهم من روح جديدة، أكدت لهم ضرورة هدايتهم العالمين إلى ما هداهم به ربهم.

وقد اصطبغ الشعر فى ألوانه وضروبه جميعا بصبغ إسلامى، واضح فى معانيه وتعبيراته وألفاظه، وكان من أبرز هذه الطوابع الإسلامية ما حاوله بعض الشعراء من محاكاة المعانى الإسلامية، والتعاليم الدينية وآيات القرآن الكريم.

(١) اسد الغابة ج ٥ ص ٣ ، ابن قتية ج ١/ ٢٥٣ .

## الفصل الثالث

### الطوايع الشعبية

#### ١- أحاديث البطولة بين الواقع والأسطورة

لا ريب أن أنباء الفتح وأخبار المسلمين مع الفرس والروم وأقاصيص غزواتهم العديدة وما كان يلقي المسلمون هنا وهناك من تقدم أو تقهقر أو عسر أو يسر كان يتقل بين الميادين المختلفة، وتنعكس أصداؤه على المسلمين في شبه الجزيرة العربية، حيث كانوا هناك يستشرفون هذه الأخبار ويتظرونها بشغف، ويتبعونها في حرص ولهفة، ذلك أنهم وجهوا كل اهتمامهم آنذاك إلى ما قد تتمخض عنه هذه الحركة الهائلة في تاريخهم وتاريخ عقيدتهم.

وكان هذا الاهتمام يظهر في وضوح في أثناء المعارك المهمة والفاصلة، إذ يروى الرواة: أن العرب كانوا يتوقعون وقعة القادسية فيما بين العذيب إلى عدن، وفيما بين الأبله وأيلة، ويرون أن ثبات ملكهم وزواله بها. وكانت كل بلد مصيخة إليها، تنظر ما يكون من أمرها، حتى إن الرجل كان يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية<sup>(١)</sup>.

وكان المسلمون يتلهفون على أنباء المعارك والانتصارات. وكان الفاتحون وكثرتهم من المسلمين العاديين الذين انطلق الشعر على ألسنتهم ولم يكونوا يعرفون به من قبل يسجلون انتصاراتهم ويعتبطون بها، وكان كل هذا يتجمع في روايات الرواة، في صورته الأولى التي صدر فيها، والتي لم تصل إلينا على كل حال. إذ إن هذه المروييات الماثورة من أخبار الأبطال وبلائهم، وأفانين بسالتهم، وما يروون لهم أو عنهم من الشعر في إطار زمني يحدد سير المعارك قد تعرضت في صورتها البسيطة الواقعية لغير قليل من محاولات النسج، والسبك والتضخيم، والإغراق، ودخلها كثير من الخيال الشعبي.

(١) الطبرى ٥/١/٢٣٦٤.

فقد ظلت هذه الآثار تتناقل على الألسن زمنا قبل تدوينها. وأسهم القصاص الذين كانوا يتحدثون إلى الناس في مساجد الأمصار - فيذكرون لهم من أخبار المغازي والفتوح ما يمثل لهم أهواءهم وشهواتهم ومثلهم - إسهما خطيرا في البعد بهذه الرويات الماثورة من الواقع إلى الخيال البعيد.

فقد كان هؤلاء القصاص يمضون مع الخيال إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم، لا إلى حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقضوا. وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص، مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث<sup>(١)</sup>. كما كان القصاص كلفين بإرضاء روح الشعب الذي كانوا يتحدثون إليه، والذي يطلب المعجزة في كل شيء، فعنوا عناية كبيرة بالأساطير والمعجزات وغرائب الأمور، وصوروا له تاريخه وفتوحه كما يحب أن يراها وأن يسمعها ورسموا له صور الأبطال الذين يعجب بهم ويمثلهم رسما خياليا أسطوريا.

وكانت هذه الأحاديث. شأنها شأن القصص الشعبي كله في حاجة إلى الشعر، فالبطل لا بد أن يكون شاعرا إلى جانب فروسيته، وعاشقا ومستخفا بكل المصاعب التي يواجهها. وهذه المواقف في حاجة إلى الشعر، لتزيينها، وتشويق الشعب لسماعها. ورصعت هذه الأحاديث بالشعر، وأضيفت هذه الأشعار إلى الشعراء وغير الشعراء، ونتجت أشعار تنسب إلى غير قائل، وأشعار أخرى تنسب إلى الجن، وولدت الروايات، وامتلأت بالأعاجيب والتهاويل. حتى ليذهب بعض الباحثين المحدثين: إلى أن الأخبار التي استخلص منها تاريخ العرب ليست إلا المظهر القصصي للحياة العربية القديمة، ذكرها العرب بعد أن استقروا في الأمصار، فزادوا فيها ونحوها بالشعر<sup>(٢)</sup>.

وظلت الروايات هذه تتعرض لعمل الرواة والقصاص، وتتأثر بالظروف التي تروى خلالها، حيث اشتدت العداوة السياسية، وعادت العصبية جذعة عقب الانتهاء من الفتح، واشتعلت الفتن، ولعبت هذه الظروف - فضلا عن تعلق روح الشعب الذي شغف برواية أخبار الفتح - دورها في تغيير صور هذه الآثار إلى ما يرضى نزعات

(١) في الأدب الجاهلي / ١٨٩.

(٢) في الأدب الجاهلي / ٢٠٠.

الشعب، من الإغراب والإعجاب وما يساير نزعات السياسة والعصبية، وبعد هذا كله عن الوقائع، إلى أن أصبحت أساطير أو كادت، حتى دونت في القرن الثاني الهجري.

ومن بين هذه العوامل جميعا نجد روح الشعب أكثر فاعلية في البعد بهذه الأحاديث عن الواقع إذ إن المسلمين الذين تحققت على أيديهم المعجزة فدكوا صروح الفرس والروم بهرتهم المعجزة التي صنعوها بأيديهم، فراح وجدانهم يطلب الإعجاز في تبريرها، ويسهم بطريق غير مباشر في رواية تاريخ الفتوح، رواية تشبع مطامحه وترضى اعتزازه، كما يبدو في تصوير بلاء الفرسان الأفذاذ، كخالد بن الوليد، والقعقاع، والمثنى، وعمرو بن العاص، وأبي محجن الثقفي، وعمرو بن معديكرب، وغيرهم من الأبطال الذين نسبت إليهم أفعال معجزة لا تكاد تصدق. بل إن هذه الأفعال كثيرا ما نسبت إلى المحاربين العاديين. فهذا حياص بن قيس بن الأعرور القشيري، الذي قطعت رجله يوم اليرموك يقتل ألفا من الروم وحده في هذا اليوم<sup>(١)</sup>.

ولو رحنا نعدد القتلى الذين قتلهم المسلمون من الفرس والروم في الوقائع المختلفة جميعا لربما مجموعهم على كل ما نعرف الآن من ضخامة الجيوش الحديثة.

ونحن لا نذهب مذهب الشك الخالص في هذه الروايات، وما احتوت عليه من الأخبار والأشعار والقصص، فإنها على حد زعم المتشككين مظهر للوقائع الحقيقية، تدل عليها وتصورها، وتعطينا صورة لروح الشعب في ذلك الوقت. وسنرى فيما بعد. كيف لعبت هذه العوامل دورها في البعد بالروايات وأحاديث البطولة من الواقع التاريخي إلى التاريخ الأسطوري، الذي نسجه الخيال الشعبي.

## ٢- قصص الفرسان في الفتوح

روى القصاص أحاديث البطولة في الشعب، الذي كان يتطلب أن يرى فيها إعجازا وإغرابا يبران المعجزة التي تحققت له. وكان يحب أن يرى نفسه في فرسانه الذين حققوا هذه المعجزة. وأفلح القصاص في نسج هذه الصورة التي بعدت مع الخيال - في بعض جوانبها - عن الواقع الحقيقي إلى الأسطورة الخيالية، وصورت له الفرسان المسلمين في صورة عجيبة وفذة وهي صورة ترضى أحاسيسه بالاعتزاز وتملق إعجابه بتاريخه.

(١) الإصابة ج ٢/٦٨.

ومن هذه القصص، ما روى في أخبار القواد والأمراء والفرسان الذين برزوا ببلاتهم، واتخذت أفعالهم الفذة نواة صيغت حولها هذه الصور الأسطورية.

تبعث هذه الأخبار: اجتياح خالد بن الوليد للعراق في السنة الأولى، وإخضاعه لها، وإجرائه أنهار الدم في أليس وفم فرات بادقلى، وافتضاضه الحيرة والأنبار وعين التمر، وإنقاذه عياض بن غنم، وفتح دومة، واعتسافه الصحراء إلى مكة ليؤدى فريضة الحج وعودته إلى الحيرة قبل أن يعود جيشة إليها، ثم اعتسافه الصحراء إلى الشام في خمسة أيام، سلك فيها طريقا غامضا، لا يزال موضوع حدس وتخمين لعلماء الجغرافية العسكرية إلى اليوم.

وقد فعلت هذه الروايات فعل السحر في الناس. فتابعوا خالدا في الشام فإذا هو بطل اليرموك، وهو الذى تسور دمشق، وإذا هو أحد أركان المسلمين فيها بعد فتح دمشق، وفي القضاء على الفتن في شمالى الشام.

ولا شك أن هذه الروايات هي التى عزلت خالدا، كما يبدو فى كتاب الخليفة إلى الأمصار، واعترافه بأنه لم يعزله عن خيانة وتقصير، وإنما لأن الناس قد فتنوا به، فخاف أن يوكلوا إليه الأمر، وأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن عمر تمثل بقول الشاعر:

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع      وما يصنع الأقوام فالله صانع<sup>(١)</sup>

وقد مر بنا كيف كانت حياة عمرو بن معديكرب أقرب ما تكون إلى الأسطورة، من ترداد لقصص بطولاته وأفاعيله فى القتال، ومنازلة الأقران وشجعان العرب، واستهانته بكل صعب، وما كان من امتداد عمره حتى ينيف على المائة، والرغبة فى جعله ممن شهدوا صفين، ليكون أطول عمرا. كل هذا كان بدافع الرغبة الشعبية فى النزوع بهذه السير والذكريات إلى الأساطير المعجزة، لتكون من دواعى فخر الشعب وزهوه، وإرضاء منازع الفروسية الكامنة فيه، وتأكيد المثل العليا فى الشجاعة والنجدة.

ويظهر ذلك جليا فى التضارب الذى تحفل به الروايات التى تعلل قصائده، لربطها بأخبار فروسيته وشجاعته. ومن هذا القبيل أيضا. ما يذكر فى أخبار أبى محجن الثقفى،

(١) الطبرى ج ٥/٢٥٢٨.

وما يروى في خروجه للجهاد من روايات متضاربة. فهو حُدَّ في الخمر، ونفاه الخليفة مرة، ثم مرة أخرى يشبب بامرأة من الأنصار. وتلعب الروايات دورا كبيرا في تفسير خروج الشاعر إلى القادسية والتحاؤه بسعد، لتفسير حبسه في القادسية عن القتال، ثم انطلاقته البطولية وتحقيقه النصر للمسلمين، بعد أن يبكى أغلاله ويظهر ما يجيش في صدره من ضيق لعوده عن القتال.

وتذهب الروايات مذاهب بعيدة في تصوير بلائه وقصفه للأعداء، حتى ليظنه المسلمون الخضر يمتطى البلقاء، ويظنه الآخرون ملكا يحارب إلى جانبهم، ويتعجب سعد إذ ترك أبا محجن حبيسا، ولولا أنه حبسه بيده لظن أنه هو<sup>(١)</sup>.

وواضح فيما سلف أن أبا محجن خرج للجهاد قبل القادسية، وأنه شهد الجسر، وأنه إنما حبس لشغبه على سعد. ولكن الروايات تَمْضِي تستكمل جوانب شخصية الفارس فتصوره عابثا لاهيا، مستهينا بكل شيء، يجادل الخليفة في الخمر جدالا فكها، ويرثيها بشعر روى لأكثر من شاعر<sup>(٢)</sup>.

ومثل أبي محجن وما نسج عنه نسجت قصص كثيرة في مقتل يزيدجرد ورستم ومهران، وتنازعت الروايات شرف قتلهم، فتفرق دمهم بين عدد كبير من الفرسان، أمثال: عمرو بن معديكرب، وطليحة بن خويلد وقرط بن جمامح، وزهير بن عبد شمس، وعمرو بن شأس، وهلال بن غلفه. وقال كل من هؤلاء شعرا يفخر فيه بقتل أحد هؤلاء القادة العظام.

ومن مصر أتت روايات تتحدث عن بطولات عمرو بن العاص ودهائه، وقدمه إلى مصر في الجاهلية مرتين، ومشاهده في الإسكندرية، وما كان من التنبؤ له بفتح مصر، في قصة وقوع الكرة بكمه في أحد أعياد القبط<sup>(٣)</sup>. مما يدل على تدخل روح العامة في الاستشراف والتوقع والتمهيد لفتح مصر على يده. وغير ذلك من القصص التي تكشف عن المثل العربية في النجدة والوفاء، من مثل: قصة اليمامة التي باضت فوق

(١) الأغاني ٢١/ ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠.

(٢) الأغاني ٢١/ ١٤٢.

(٣) القرظي ج ١/ ١٥٨.

فسطاطه، عندما عن له الرحيل إلى الإسكندرية، وأمر جنده بأن ينتظروا حتى تنقف اليمامة ويطيّر فراخها<sup>(١)</sup>.

كما يروى فى فتوح إفريقية، ما كان من قتل ابن الزبير لجرجير فى ثلاثين فارسا فقط، إذ اكتشف منه ثغرة دل عليها عبدالله بن سعد فانتدب معه الفرسان حتى أجهز عليه عبدالله ورفع رأسه برمحه<sup>(٢)</sup>.

وتجرى كل هذه الروايات فى تفصيل دقيق، وسرد معجب، كأثر من آثار الرواية والقصص، يتخللها بعض الشعر الذى ينسب إلى هؤلاء الفرسان.

## ٢- أشعار مجهولة القائل

ويذهب بعض الباحثين مذهب الشك فى الأشعار التى لا تنسب لقائل معين، فهى فى رأيهم، نحلّت نحلا بفعل عوامل مختلفة، منها السياسة، والخصومات العصبية، وما كان من فعل القصاص.

وفى رأينا أن هذه الأشعار لا يمكن أن تكون قد تعرضت للنحل فكثرتها لا تهدف إلى الإشادة بعصبية معينة، كذلك الشعر الذى انطلق على ألسنة الشعراء المغمورين وغيرهم، ممن لم يكن له كلف أو شهرة بالشعر. وبعضها الآخر الذى يشيد بعصبيات معينة لا يمكن أن يكون منحولا، فإنه يتغنى بعصبيات شهدت الفتوح وأبلى فيها. بل إن هذه القبائل ذاتها كانت أكثر أحياء العرب بلاء فى المواقع الفاصلة فى الفتوح، ونحن لا نستطيع أن نرفضها لهذا السبب، أو نقف منها موقف التشكك، فهى تعبر عن إحساس شعبي داخل هذه العصبيات بالمعركة وخطورتها، وهناك أشعار أخرى صدرت عن هؤلاء المغمورين، الذين لم يعن الرواة بتدوين أسمائهم، لضعف شأنهم فى الشعر، ولأنهم كانوا من عامة الجند وإن شكلوا كثرته.

ومن اللون الأول ما ترويه بعض الروايات: من أن الجن قد سارت بأنباء القادسية فأنت بها ناسا من الإنس فسبقت أخبار الإنس إليهم. ويدت امرأة ليلا على جبل بصنعاء لا يدرى من هى تقول:

(١) الولاة والقضاة ص ٩.

(٢) أغاني دار الكعب ٦/٢٦٦-٢٦٧.

حيثك عنا عكرم ابنة خالد  
 وحيثك عنى الشمس عند طلوعها  
 وحيثك عنى عصابة نخعية  
 أقاموا لكسرى يضربون جنوده  
 إذا ثوب الداعى أناخوا بكلكل  
 وما خير زاد بالقليل المصرد  
 وحياك عنى كل ناج مفرد  
 حسان الوجوه آمنوا بمحمد  
 بكل رقيق الشفرتين مهند  
 من الموت مسود الغياطل مجرد<sup>(١)</sup>

وكذلك سمع من تغنى بمثل هذه الأبيات فى اليمامة فقال:

وجدنا الأكثرين بنى تميم  
 هم ساروا بأرعن مكفهـر  
 يجور للأكاسر من رجال  
 تركن لهم بقادس عز فخر  
 مقطعة أكفهم وسوق  
 غداة الروع أصبرهم رجالا  
 إلى لجب فزرتهم رعالا  
 كأسد الغاب تحبهم جبالا  
 وبالخيفين أياما طوالا  
 بمردى حيث قابلت الرجالا<sup>(٢)</sup>

وواضح أن الأبيات الأولى تشيد بفعال نخع بالفرس وتصفها بأنها عصابة مؤمنة بمحمد، حسان الوجوه ضربوا كسرى بسيوفهم وأذاقوه نكالا. بينما تعدت الأبيات الأخرى حد الفخر إلى التفاخر بتميم على سائر الأحياء، فهم الأكثرون، وهم أصبر القوم رجالا، وإن أشادت بتميم وبفعالها فى الفرس نفس الإشادة.

وقد يجعلنا هذا نظن أن المقطوعة الثانية كانت ردا على المقطوعة الأولى ولا غرابة أن يكون بعض النخعيين قد أشادوا بنخع فرد عليهم بنو تميم يغلبون صنيعهم، ويتفاخرون على أحياء العرب عامة.

ولكن الغرابة فى نسبة هذه الأبيات إلى متغنين من الجن. والأغرب من ذلك ما تقرره الرواية من أنه قد سمع بمثل هذا فى كافة بلاد العرب<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبرى ٥/ ٢٣٦٤.

(٢) الطبرى ٥/ ٢٣٦٦.

(٣) المرجع نفسه.

ونسبة الشعر إلى الجن في هذه الرواية ليست أول مرة من نوعها، إذ إن العرب — وبخاصة — الأعراب والرواة قد لهما بعد الإسلام بتسمية الشياطين الذين كانوا يلهمون الشعراء قبل النبوة وبعدها، وشجعهم على هذا ما في القرآن من آيات تنبئ بأن الجن قد استمعوا للنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن فلانت قلوبهم. وآمنوا بالله ورسوله، وعادوا فأندروا قومهم ودعوهم إلى دينه، وأنهم كانوا يصعدون في السماء يسترقون السمع فرجموا بالشهب، وانقطعت أخبار السماء عن أهل الأرض. ولهذا راح الرواة والقصاص يستغلون هذه المعاني لخدمة أغراضهم، فزعموا — من قبل — أن الجن قتلت سعد بن عبادَةَ الأنصاري الذي لم يذعن لقريش، ولم يؤمن بأحقيتها في الخلافة دون الأنصار. وزعموا أيضا أن الجن قالت في قتله غيلة بأحد أسفاره شعرا. وكذلك انطقت الجن بشعر في رثاء عمر بن الخطاب، ينسبه بعض الرواة إلى الشماخ بن ضرار وأخويه مزرد وجزء<sup>(١)</sup>. لا غرابة إذن في نسبة الشعر إلى الجن، وإنما الذي يستحق النظر وهو ما تؤكد الرواية من أنه قد سمع بمثل هذا الغناء في كافة بلاد العرب. وهذا — في حد ذاته — كفيلا بأن يلفتنا إلى مدى توقع المسلمين والعرب عامة للنتائج التي يمكن أن تتمخض عنها القادسية، إذ كان العرب يتوقعونها من العذيب إلى عدن، وما بين الأبله وأيلة<sup>(٢)</sup>، الأمر الذي يؤكد لنا صدور الأبيات في أعقاب المعركة، وأنها لم تنحل على أيدي الرواة، وإنما أطلقتها القبائل بدافع المفاخرة فيما بينها.

وتظهر الطوابع الشعبية واضحة في رواية هذه الأبيات على لسان الجن وتغنيها بها وسماع بلاد العرب كلها هذا الغناء، وتصور أن الجن سارت بأنباء القادسية إلى أهل الجزيرة، فسبقت إليهم نفرا من الإنس، مما يكشف عن تصور شعبي متأثر بقواعد معينة، يخضع لها تفكير العامة عند معظم الشعوب الأولى، كحكايات المردة، وأساطير لقمان، وصقوره، وغير ذلك من المتوارثات الشعبية، فضلا عما بالقرآن من أحاديث الجن. وهذه كلها أشياء مهمة لدراسة الأدب الشعبي، عن طريق محاولة التعرف على نفسية الشعب وثقافته في الآونة التي وضع فيها الشعر في هذا الاتجاه.

(١) في الأدب الجاهلي ١٧٠.

(٢) الطبري ٥/ ٢٣٦٤.

وقريب من أمر هاتين المقطوعتين أبيات من الرجز قيلت في طاعون عمواس،  
نسبت إلى غلام أعجمي، تغنى بها خلف رجل عزم على الرحيل فرارا من الطاعون،  
فقال له:

يايها المشعر هما لا تهم إنك إن تكتب لك الحمى تحم<sup>(١)</sup>

وتغنى آخر - خلف غلام هرب من البصرة من الطاعون على حمار، فإذا بمن  
يحدو به:

لن يعجزوا الله على حمار ولا على ذى غرة مطار

قد يصبح الموت أمام السارى<sup>(٢)</sup>

ونعجب كثيرا أن يكون الحادى أعجميا، ونرجح: أن ذلك من فعل الرواة  
والقصاصين، الذين أرادوا الإغراب فى كل شىء، حتى لينطقوا الأعاجم بهذه الآراء  
القدرية التى شاعت بين المسلمين.

أما اللون الآخر من الشعر الذى لا ينسب إلى قائل معين: فهو شعر المغومرين،  
الذين لم يعن الرواة بتدوين أسمائهم لضعف شأنهم فى الشعر، وكونهم من عامة  
الجنود، وهو شعر كثير، ومعظمه فى تصوير بلاء المسلمين، مثل قول الشاعر:

صبحنا بالكتائب جمع بكر وحيا من قضاة غير ميل

أبحنا دارهم والخيل تردى بكل سميدع سامى التليل<sup>(٣)</sup>

أو تصوير قسوة المعارك، كما يبدو فى قول أحد المسلمين:

يارب مهر حسن مطهم يحمل أثقال الغلام المسلم

ينجو إلى الرحمن من جهنم يوم جلولاء ويوم رستم

ويوم زحف الفارس المقدم ويوم لاقى ضيعة مهزم

وخردين الكافرين للقم<sup>(٤)</sup>

(١) الطبرى ج ٥/٢٥٢١.

(٢) نفس المرجع.

(٣) البلاذرى ٢٤٩.

(٤) الطبرى ٥/٢٤٧٢.

أو فى فخر جندى بقائده، مثل قول أحد جنود المثنى فى سوق الأنبار:  
 وللمثنى بالعمال معركة      شاهدا من قبيلة بشر  
 كتيبة أفزعت بوقعتها      كمرى وكاد الإيوان ينفطر  
 وشجع المسلمين أن حذروا      وفى ضروب التجارب العبر  
 سهل نهج السيل فافتحروا      آثاره والأمور تقتفسر<sup>(١)</sup>

وكما فخر أحد جنود البراء بن عازب به فى قوله:  
 قد تعلم الديلم إذ تحارب      لما أتى فى جيشه ابن عازب  
 بأن ظن المشركين كاذب      فكم قطعنا فى دجى الغياهب

ومن جبل وعر ومن سباب<sup>(٢)</sup>

وكذلك يذهب بعض الشعر فى الرثاء، كرتاء هذا الشاعر لعامة شهداء المسلمين  
 عند نقل رفاتهم إلى مشرق بالقادسية إذ قال:

جزى الله أقواما بجنب مشرق      غداة دعا الرحمن من كان داعيا  
 جنا من الفردوس والمثل الذى      يحل به م الخير من كان باقيا<sup>(٣)</sup>

ونجد كثرة من الشعر تنصرف فى باب الحنين وشكوى الاغتراب وتروى بعض  
 الروايات أنه كان مما يترنم به<sup>(٤)</sup>، من مثل قول القائل:

أقمرية الوادى التى خان إليها      من الدهر أحداث أنت وخطوب  
 تعالى أطارحك البكاء فإننا      كلانا بمرور الشاهجان غريب<sup>(٥)</sup>

(١) البلاذرى / ٢٥٠ ، ياقوت ج ٣/ ٥٩٣ .

(٢) ياقوت ج ٤/ ٨٨ .

(٣) ياقوت ج ٤/ ٥٢٩ .

(٤) ياقوت ج ٢/ ٥١٠ .

(٥) المرجع نفسه وانظر ج ٢/ ٢٠٧ ، ١٩٩ ، ج ٤/ ٧٤٧ ، ص ٧٤٨ ، ٧٤٩ .

كما تروى بعض الأراجيز التي – كانت النساء والولائد والأطفال يتغنون بها إبان فتح بيت المقدس، وما فعله المسلمون بأعدائهم فى الفترة ما بين جمادى ورجب – تقول:

العجب كل العجب      بين جمادى ورجب  
أمر قضاء قد وجب      يخبره من قد شجب  
تحت غبار ولجب<sup>(١)</sup>

ومثل هذه الأرجوزة التى تغنى بها الأطفال والنساء فى الكوفة بعد عزل الوليد بن عقبة، والتى تقول:

يا ويلتا قد عزل الوليد      وجاءنا مجوعا سعيد  
ينقص فى الصاع ولا يزيد      فجوع الإمام والعبيد<sup>(٢)</sup>

وهكذا – نجد هذا الشعر المجهول قائله يتناول نفس الموضوعات التى تناولها الشعر المنسوب إلى قائله، وإن كان يتميز بمميزات معينة. فهو شعر قليل، ورجز كثير، وتكاد تنعدم فيه روح الفردية، إذ يتغنى الشاعر فيه بلسان الجماعة، ويعبر عن فعالها جميعا، وما تقاسيه فى مجموعها من مشاق القتال، ولا ينفك عن هذه الميزة إلا فى شعر الحنين والشكوى فحسب.

وكذلك يتميز هذا الشعر بروح إسلامية واضحة، تشيع فى معانيه وألفاظه، وفضلا عن هذا فهو بسيط فى أفكاره القريبة، التى تكاد تقرب من التقريرية المحضة، وتكاد ألفاظه تكون نثرا، فيما عدا شعر الحنين، فإننا لا نلمس فيه هلهلة النسيج وضعف البناء، اللذين نجدهما فى بقية هذا الشعر، مما أدى إلى أن يتسم بالصدق والحرارة الشعورية، برغم بساطته وسهولته.

وخلاصة القول: أن طوابع شعبية تسم بعض شعر الفتوح ورواياته وروايات البطولة التى نسبت إلى بعض شعرائها، بفعل اهتمامات أفراد الشعب بهذه الفتوح، وتغنيهم

(١) الطبرى ج ٢/ ٢٤١٩.

(٢) الطبرى ج ٥ / ٢٨٥٠.

بانتصاراتها، ورغبتهم فى تصويرها تصويرا معجبا يرضى نوازع الزهر فيهم . وقد تعلق القصاص هذه المنازع بما زادوه فى قصص الفتوح، وما نسبوه إلى فرسانها المشهورين، من أفعال تحولت بسيرهم من الواقع إلى ما يكاد يشبه الأساطير، مما أدى إلى نحل الشعر عليهم، ونسبته إلى الشعراء وغير الشعراء منهم .

وأشعار أخرى نجدها منسوبة إلى غير قائل، تعالج كل موضوعات الشعر التى عاجلها الشعراء المعروفون وهى أشعار تطبعها طوابع شعبية، فى تغنيها بروح الجماعة، وتغنى الناس بها، وما يبدو من بساطتها وسهولتها، وقربها من الحديث العادى، مما يؤكد أنها لشعراء من عامة الجنود، لم يعن الرواة بالتعرض لهم لضعف شأنهم، وعدم نضج أشعارهم نضجا يؤهلهم للشهرة؛ ذلك لأن الرجز هو أقرب ألوان الفن القولى إلى السليقة العربية لعفويته وسهولته، وأيضا فإن هؤلاء الشعراء لم يكن يهمهم أن ينسب الشعر الذى ينظمونه إليهم، إذ كانوا من عامة الشعب، وعامة الشعب دائما لا يهمهم أن ينسب إليهم فضل أو تمجيد. إنما هى مشاعر ينطقون بها فى بعض اللحظات، ولا يهم من ينطقون بها أن تنسب إليهم أو أن يشاد بهم من أجلها. ومن أجل ذلك لم تعين نسبتها إلى من نظموها، إذ كان ذلك لا يعينهم فى شىء .

وذلك شىء عام يلاحظ فى الآداب الشعبية أنه لا تتضح فيها النسبة إلى من صنعوها، وكأنها ليست لأفراد معينين، إنما هى للشعب كله، تصور روحه، وتعبر عن شخصيته، وأنها ميراث لجميع أفراده، لا يختص بها فرد دون فرد. ومن خير ما يصور ذلك الأمثال الشعبية، فإنها دائما مجهولة القائل، لأنها من عمل الشعب، وأعمال الشعب لا تسجل تسجيلا فرديا، وكأنما يتلاشى فيها الفرد فى الجماعة تلاشيا تاما.



## الفصل الرابع

### الطوابع الفنية فى شعر الفتوح

#### ١- الأثر الإسلامى فى الصياغة

نستطيع أن نبتين فى وضوح بعد ما عرضنا من شعر الفتح الإسلامى فى الميادين المختلفة عدة طوابع فنية، تطبع هذا الشعر فى مجموعته، وتوضح معالمه وقيمه التاريخية، وتضعه - من ثم - فى موضعه من تاريخ الأدب العربى، وشعر الفتح يكشف فى جلاء عن أثر الإسلام كعقيدة، وكفكرة فى نفسية العربى. وفى حمله على أن يبذل وأن يضحى فى سبيلها بكل ما يملك، من روحه وجهاده ونضاله، كما يظهر فى شعر الجهاد وأرجاز الفرسان. ويصور شعر الفتوح بالتالى مدى التغيير الهائل الذى أحدثته الفكرة الإسلامية فى الارتقاء بالنوازع الوجدانية والقبلية والفردية الضيقة الحدود إلى وجدان متوحد من أجل هدف واحد غاية فى السمو، للتكتل فى مواجهة الخطر الخارجى.

وهو يرسم بهذا صورة كاملة للانطلاق الهائلة الواسعة، التى انتزعت العربى من حيزه الضيق الحدود لتطوف به فى أرجاء ممتدة، لم يكن استشرفها فى يوم من الأيام.

وتأسيسا على هذا فإن صورا رائعة للفروسية العربية يمكن رسمها فى ذلك الإطار الجديد الذى وضعه الإسلام لتقالدها، وصورا رائعة أخرى يمكن استشفافها للإيمان العميق، والتصديق المؤمن بما وعد به المؤمنون المجاهدون، ولما وضعه هذا الإيمان بتلك النفوس، من اكتشافها لذواتها، ومعرفتها بقدرها. ومن ثم راحت تلك بهذا الإيمان معاقل الأكاسرة والأباطرة، سادة الأمس القريب، وتلوى بأعنة ممالكهم إلى الإسلام.

وهذه الصورة الرائعة التى يصورها شعر الفتح للنضال الصادق من أجل الفكرة الإسلامية - تستمد ألوانها من المثل الإسلامية السامية، كالثقة المطلقة بما وعد الله، والاطمئنان إلى قضائه والتسليم به، كما يبدو فى شعر الرثاء، وعلى الأخص فيما استحدثه المسلمون من رثاء للأشلاء واحتسابها.

وما من شك في أننا نستطيع كذلك أن نعتمد على شعر الفتح، الذى لم يغادر معركة كبيرة ولا صغيرة إلا صورها كوثيقة تاريخية عاطفية لهذه الحركة الخطيرة فى حياة الدعوة الإسلامية، والشروع فى بناء حياة مستقرة فى البلدان المفتوحة، والأمصار الإسلامية.

وبرغم قصر المدة التى بسط فيها المسلمون أجنحتهم على هذه المناطق الشاسعة، فإن الشعر قد أفلح فى إعطائنا بعض الملامح البارزة لهذه المناطق، كما أنه ألقى إلينا ببعض الضوء على التزاوج الذى أخذ يحدث بين النفوس العربية المنطلقة وتلك الأجواء الغريبة عنهم فى طبيعتها وسبل الحياة فيها، فإذا بعض النفوس راضية مطمئنة فى مناطق معينة، وإذا بعضها الآخر لا يقر له قرار فى مناطق أخرى.

وفضلا عن هذا استطاع شعر الفتح أن ينقل إلينا بعض الانعكاسات المتولدة عن الاحتكاك البكر بين هذه النفوس وتلك المناطق، وما سقط إليها من التأثيرات الحضارية، التى اعترضت خبراتهم وثقافتهم من أثر هذا الاحتكاك.

ورائع جدا هذا الضرب من الشعر. الذى تغنى فيه المجاهدون الغرباء همومهم فبكوا، واستبكوا أوطانهم التى فارقوها وخلفوا فيها أحباءهم وأهلهم، فى رقة وعذوبة وشجن، لم نعهد له مثيلا فى الأدب العربى من قبل.

ومن نافلة القول أن نؤكد أن الشعر الذى هاجر فى وجدان المحاربين وعلى ألسنتهم إلى هذه البقاع الجديدة التى رفرفت عليها راية الإسلام، لم يكن إلا البذرة الأولى التى أثمرت بعد عصر استقرار المجتمعات الإسلامية، إذ سكن الفاتحون هذه الأمصار، وزحفت فى أعقاب الفتوح هجرات غطت الأرض الجديدة، ووسمت إنتاجها فى الشعر بنفس السمات التى حددتها الفتوح، من حيث الكم والكيف.

وليس ثمة شك فى أن هذا الشعر استطاع أن يصور جوانب من حياة هؤلاء المواطنين فى الأمصار، وما اكتنف حياتهم من جراء تطبيق النظم الإدارية الإسلامية، وما كان يعترى علاقاتهم بأمراتهم وقادتهم وخلفائهم، من نقد لسياستهم واتهامهم إذا ما انحرفوا، وعزلهم إذا ما ثبت انحرافهم.

وإن كنا نؤمن بأن حركة الفتح الإسلامى كانت كل شىء فى حياة المسلمين فى هذا الوقت، وأنها كهدف كبير استوعبت كل اهتمامهم وشواغلهم، فإن الشعر قد صور جوانب هذه الحركة وما رافقها من وقائع وأحداث، وما صاحبها من تغير مادى ومعنوى. وبهذا يكون شعر الفتح صورة صادقة لحياة المسلمين جميعا، فى هذه الفترة الهامة من تاريخهم. ومن ثم فإن هذا الشعر يعتبر بحق جسرا طبيعيا ومنطقيا، عبر عليه الشعر العربى من عصر إلى عصر. وهو على هذا التصور حلقة لا يمكن إغفالها أو إغفال أثرها من حلقات الأدب العربى، أو هى عصر من عصوره كما تعودنا أن نقول.

بل إنه أدق نموذج للتاج الشعرى الإسلامى. وبناء على ذلك، يعتبر المجال الطبيعى لاستبانة أثر الإسلام فى الشعر العربى. ولهذا فنحن نزعم أن تطورا بفعل هذا الأثر، وتجديدا بدافع منه قد لحقا بالشعر العربى، وظهر ذلك فى شعر الفتح. فقد واكب الشعر حياة المسلمين، وتطور مع أهدافها وغاياتها وسبلها، وصور أضخم جوانبها، ووجد أغراضا وقيما وموضوعات مستحدثة، وتطور بموضوعات قديمة، كما اكتسب لنفسه طوابع فنية معينة اتسم بها.

وهذه الطوابع ليست إلا ظللا للفكرة الإسلامية ومقتضياتها، وصدى للوجدان الجماعى للمسلمين، وانعكاسا للظروف التى عاشها المسلمون فى فترة من أهم فترات حياتهم وتاريخهم.

وعلى هدى هذه المقاييس الفاعلة فى تشكيل شعر الفتح الإسلامى، يمكننا أن نتبين خصائصه الفنية التى تطبعه فى عمومها.

وأولى هذه الخصائص: أن شعر الفتح شعر ملتزم فلم يكن له إلا أن يكون أثرا للحركة الإسلامية كما أسلفنا. وعلى ذلك فقد خالف عن أن يكون كما كان الشعر الجاهلى أداة لخدمة القبيلة، أو ألهىة يتلهى بها الشاعر فى سبيل التسرية والطرب والاستمتاع، وتحول إلى أن يكون أداة اجتماعية، تحفظ تماسك الوحدة الإسلامية، ووسيلة من وسائل صيانة الفكرة الإسلامية وتأييدها.

وبهذا صار للشعر فى الإسلام مفهوم جديد، يكاد يكون التزاما بغايات معينة جند الشعر فى خدمتها لا يتجاوزها ولا ينحرف عنها، بل لا يمكن له أن ينحرف عنها، فمغبة

انحرافه لا تهدد كيان المجتمع الإسلامى فحسب، وإنما تهدد أيضا فكرته وعقيدته وما ندعو إليه فى المحيط العربى، الذى يعطى الشعر قيمة خاصة، ويحتفل به أيما احتفال.

وهكذا لم يكن بد لهذه الجماعة الإسلامية من أن تتزع إلى توجيه الشعر هذه الوجهة، واعتباره أداة اجتماعية، ملتزمة بخدمة المبادئ والغايات المحددة لها، على ألا تنحرف عنها.

وقد كان مقياس المواطنة الإسلامية فى الحياة العربية الجديدة أن ينهج الفرد مناهج السلوك التى رسمها الإسلام، وكان مقياس الصحة والساد فى القول أن يقول الفرد ما يصلح دافعا للفكرة الإسلامية ومبشرا بها. ومذيعا لتعاليمها. وكان مقياس الشاعرية المسلمة أن يستثنى صاحبها من الذين يتبعهم الغاؤون، والذين يهيمون بكل واد ويقولون مالا يفعلون.

وبناء على هذا الالتزام كانت أهم الموازين النقدية آنذاك هى الاتفاق مع روح العقيدة وغاياتها ومثلها. ولا زالت نقدرات النبى ﷺ لشعر النابغة الجعدى، وما ينطوى فيها من استحسانه ودعائه له تؤكد هذه النظرة<sup>(١)</sup>، وما كان من اتجاه النابغة بعد هذا إلا أن يقول شعرا دينيا خالصا يحاكى به آيات القرآن. وكذلك كان إحسانه إلى حسان وإعجابه به، وبشعر لبيد، وطرفة، لما فيه من معانى تقرب من معانى الإسلام، وظلت هذه الاتجاهات أهم قيمة نقدية فى الميزان النقدى خلال صدر الإسلام وتمسك بها الراشدون، فأعلنوا رضاهم عن كل شعر فيه إشادة بالعقيدة والمثل العليا للأخلاق، التى رسمها الإسلام وأبدوا سخطهم على كل قول يناهض هذه المثل، أو يشير ما نهت عنه، أو يدعو إلى رديلة، أو يشيع فاحشة، أو حتى يؤثر الدنيا على الآخرة أو لا يجعل الإسلام رادعا للنفوس عن الانزلاق إلى النزوات كما عاب عمر بن الخطاب على شعر سحيم عبد بنى الحساس، إذ قدم الشيب على الإسلام رادعا عن العيب، فحرمه الجائزة لهذا السبب<sup>(٢)</sup>.

وكان من أضخم تلك الغايات الإسلامية وأهمها، حركة الدعوة الكبيرة التى بدأها المسلمون وانطلقوا بها عبر حدودهم إلى العراق، وخراسان، والشام، وأفريقية ومصر.

(١) ابن قتيبة ج ١ ص ٢٤٨.

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٧٢.

وكان على الشعراء الذين استجابوا لهذه التعاليم أن يكونوا في مقدمة الجيوش الزاحفة أو من خلفها، يقومون بأداء ما التزموا بأدائه.

ووجد الشعراء الذين أحجموا من قبل عن الالتزام بهذه التعاليم، فرصة في انطلاقهم إلى الميادين جنودا يجاهدون في سبيل الله، ويفخرون بجهادهم وبجهاد قبائلهم في نصرة العقيدة، بينما انطلق شعر كثير على السنة جنود لم يعرفوا بالشعر من قبل. واتسم هذا الشعر كله بالاتصال بوجودان جماعة المسلمين والصدور عنه، والعزوف عن تقاليد الشعر الجاهلي، ورفض كل ما لا ترتضيه الفكرة الإسلامية، فسكتت النعرات القومية المحلية، وخفت صوت الفخر القبلي، والإسلام وبالجهد في سبيله. واندثر الغزل الحسى، وأطيح بالمقدمات الطللية، وما كان يفخر به الفرسان من قبل برواية المغامرات المشتملة على الطرب والشراب والعبث. وإذا بالشعر في كل أغراضه ومعانيه يتلون بما لا يחדش الغايات السامية، وينطبع بطابع إسلامية واضحة في معانيه وألفاظه كما أسلفنا.

ولا ريب أن هذا الالتزام كان يخضع لرقابة المجتمع، وبعبارة أدق لرقابة وجدانه، وكما كان يحدث للمنحرفين من الشعراء عن هذه الجادة في الجزيرة من سجن كما حدث للحطيئة، ولوم كما حدث لحسان، كان يحدث ذلك لشعراء الفتح، وسكان الأمصار المفتوحة من الفاتحين. فهذا النعمان بن نظلة يعزل عن ولاية دست ميسان، لأنه قال شعرا تغنى فيه بالشراب، وسماع غناء الدهاقين والقيان. وهذا، ذو الكلاع يقع في حد الخمر، عندما يتغنى بنبذ الشام، ويكون ذلك سببا في طبع كل نبذ هناك.

وهكذا نستطيع أن نقول: إن طابع الالتزام الذى طبع شعر الفتح غير مفهوم الشعر الإسلامى بعامة، وشعر الفتح بخاصة، إذ جعله أداة فى خدمة المثل الإسلامى، والغايات والمبادئ التى تدعو إليها.

وكان لهذا أكبر الأثر فى تلوين أغراض الشعر ومعانيه بلون إسلامى واضح، يتفق وهذا الالتزام.

## ٢- القصر والإيجاز

وينبع الطابع الثانى، الذى يطبع شعر الفتح، من قيم المجتمع الإسلامى أيضا، ومن ظروف الفتح المادية والنفسية، ومن التقاليد الأدبية الموروثة كذلك. وهذا الطابع هو الإيجاز والقصر. ف شعر الفتح: مقطعات قصيرة فى مجموعته، ونادرا ما تصادف قصيدة

يزيد عدد أبياتها عن العشرة. فقد تخفف شعر الفتح من بعض التقاليد الفنية للقصيد العربي، وأصبح القصيد مقطعات قصيرة، لا تحتوى على أكثر من غرض واحد. والإيجاز طابع كان يحظى بتقدير الفكر الإسلامى، فهذا القرآن الكريم معجزة الفصاحة والبلاغة فى هذا الوقت يبلغ حد الروعة المذهلة فى غير كثير من الإسهاب، أو الاستدلال فيما لا يحتاج إليهما. وهذا الرسول ﷺ: يبغض الثرثارين والمتفيهقين، ويعدهم أبعد الناس منه مجالس يوم القيامة<sup>(١)</sup>.

وهذه ظروف القتال وحياة الجند المليئة بأعباء الفتح، والحركة الدائبة، وأهوال القتال، وشدائد اللقاء، لا تدعو إلى استقرار، كما لا تساعد على تمهل أو امتداد نفس أو غناء، أو تشقيق للكلام، أو توليد للمعانى، بل إنها لتدعو إلى الإنجاز دعوة ملحة، وتدفع إليه دفعا، وتضطر إليه اضطرارا.

فليس ثمة شئ يريد المجاهد أن يفضى به غير مشاعر اللحظة الوجيزة الحادة، يلقيها دوغا إسهاب أو إطالة، فهى مشاعر واضحة وسيطة، وليست بحاجة إلى بيان أو إيضاح أو إفاضة، كما أنها ليست بحاجة إلى إلحاح على الفكرة أو تقليب لها على وجوهها، أو تشقيقها أو التوليد منها.

وإنما هى بريق خاطف، وانفعال لاهب، وانطلاق راكض، وتعبير مركز مضغوط. وكانت النتيجة تغير صورة القصيدة العربية إلى مقطوعة قصيرة، وأبيات تستوعب الانفعالات الحادة والعواطف الملتهبة، التى تشبه الضربات المتلاحقة فى غير امتداد فى النفس أو تمهل فى الغناء، فانفسح بهذا المجال أمام الرجز بأبياته القليلة لتأدية معانى القصيدة. وقد يجد الشاعر فرصة فى أعقاب المعركة يستشعر فيها على مهل عواطفه، ويتأمل ذاته تأملا مستأنيا، ولكن ذلك كان نادر الحدوث.

### ٢- العفوية والبساطة:

وهذا الطابع من القصر والإيجاز يسلمنا إلى طابع آخر، اتسم به شعر الفتح نتيجة لانطلاق التعبير وحدته، والقصد إلى الفكرة مباشرة، دون إسهاب، فاتسم الشعر لهذا بطابع العفوية.

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤.

ولسنا نقصد بالعنفوية، التحلل من كل قيد، أو تقليد فنى، أو نظام. كما أننا لا نعى بها خلوه هذا الشعر من أية قيمة جمالية فنية، إنما نعى بها انعدام الصقل والتهذيب والمعاودة والمراجعة. وبالتالي انعدام التكلف والتعمر والتعمل. ونتج عن هذا: أن شعر الفتح وبلا استثناء يتم بالصدق والحرارة الانفعالية، كاستجابة نفسية حرة وطيقة من إيسار العناية والصنعة.

وواضح لمن يمعن فى قراءة هذا الشعر أنه ثمرة خالصة للانفعالات النفسية، دون شحذ أو صقل، وأنه استجابة نفسية لما يشعر به الفرد فى تدفق ينساب كانسباب الماء فى المجارى الطبيعية، الخالية من الصنعة المستأنية والتدبير والتصميم السبقى.

وكان ذلك أثرا من آثار القيم الإسلامية الجديدة أيضا تلك القيم التى تستمد من سماحة الإسلام وبساطته، وكراهة العمل والتكلف، وهى صفات عنى الإسلام بغرسها فى نفوس المسلمين عامة.

وكان النبى ﷺ نفسه قد وصف بها فى القرآن الكريم بأنه لم يكن من المتكلفين: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) [ص] وعلى هدى هذه القيم، كانت الكفة الراجحة فى الميزان النقدى الإسلامى لما كان جاريا مع الطبع، بعيدا عن التكلف، وكانت الكفة المرجوحة لكل كلام غالى فيه صاحبه وتكلف. فكان التعبير والتشادق عيبا وتصنعا. ولهذا كان النبى ﷺ لا يعجبه السجع المصنوع الذى يستوى لديه بسجع الكهان، والذى كان الكهنة يتصنعونه فى حديثهم عن المغيبات، ليكون لكلامهم وقع لدى العامة<sup>(١)</sup>. وكذلك كان عمر بن الخطاب ينكر الإغراب والتكلف ومخالفة الطبع<sup>(٢)</sup>.

وهو فى الحقيقة إنكار لكل محاولة تهدف إلى التكلف والتشادق، وإعجاب بكل سمح يتعد عن القسر والاستكراه. وكان لهذه السمة فضل إثارة الشعراء للإفهام فى صورة بسيطة صادقة مطبوعة، دون زخرف أو زينة، ولهذا جاء شعرهم خاليا من أية محاولة مصنوعة للعمل، وتوافرت عناصر الصدق، وحرارة التعبير، والاعتدال على التأثير، بما لها من سماحة الطبع وجيشان العاطفة وعذوبة التعبير، دون إلحاح على تصوير

(١) المثل السائر ص ١١٦.

(٢) ذيل الامالى ص ١٤٢ -

بياني دقيق، أو تصيد لتشبيه، أو تعسف لاستعارة، أو استجداء لصبغ أو زخرف. وإنما بتعبيره البسيط، في صورة بسيطة، تضمن الأداء على أى وجه اتفق.

وجملة القول أن شعر الفتح الإسلامى قد طبع بعدة طوابع فنية ميزته، استمدتها من الإطار الفكرى الإسلامى العام، ومن ظروف حركة الفتح الإسلامى الخاصة، التى صدر فى ظلها، ومن التقاليد الفنية الموروثة.

فهو شعر ملتزم بغايات ومبادئ، يعمل فى خدمتها كأداة اجتماعية وفكرية، وهو شعر قصير وموجز، تنعدم فيه الإطالة والتمهل. كما أنه شعر مطبوع، طبعته العفوية السمحة التى تتكب التعقيد والالتواء والتعمر بطوابع من سماحة الإسلام، وصدق التعبير وحرارته.



## خاتمة

### ١- خلاصة البحث

حاولت في الصفحات السابقة أن أدرس شعر الفتوح الإسلامية في عصر صدر الإسلام فبدأت بدراسة حركة الفتوح ذاتها، باعتبارها وعاء هذا الشعر، ومهدت لذلك بتجلية الدوافع القوية التي تمثلت في فكرة الجهاد، فدفعت المسلمين إلى الانسياح في الأرض ينشرون دعوة الإسلام، واثقين مما وعدوا به من النصر أو الشهادة.

وتعقبت المجاهدين في انطلاقهم إلى العراق، وما كان للتفكير في فتحه من صلة، بردة أهل اليمن ودسائس الفرس فيها، واكتساح المثنى بن حارثة لتخوم شبه الجزيرة مساحلا الخليج الفارسي، إلى أن بلغ العراق واستمال بعض القبائل العربية إليه، وشجع ذلك أبا بكر على أن يفتح العراق. فمهد بفتحه بإرسال خالد بن الوليد وعباس بن غنم إليه، واستطاع خالد بن الوليد أن يجتاح العراق رافعا لواء الإسلام في كل المواقع التي خاضها، ولم يقف في سبيل تدفعه فرس أو عرب غير مسلمين، حتى حاز سواد العراق، وضاق بإبطاء عباس الذي كان عليه أن يلقاه بالخير فخرج خالد للقائه وكان محاصرا بدومة الجندل، وفتح في طريقه الأنبار، وعين التمر، واستطاع أن يهزم العرب غير المسلمين في دومة الجندل، وعاد إلى الحيرة ليجد السواد قد انتقض، فأعاد خاضعا لسيطرة المسلمين. وتمكن من أداء فريضة الحج والعودة إلى الحيرة مع جيشه، دون أن يشعر بذلك أحد.

وفي الحيرة جاءه كتاب أبي بكر يتدبه لحرب الشام، فخلف المثنى، وفصل بنصف الجندل إلى المسلمين باليرموك. وما كاد ابن الوليد يرحل عن العراق حتى ثار أهله بالمسلمين، ولكن المثنى انسحب من الحيرة إلى بابل، واستغل أزمة البلاط الفارسي ليقابل أبا بكر في المدينة، ويستأذنه في السماح لمن حسن إسلامه - من أهل الردة - بالجهاد، وتصادف أن الخليفة التحق بالرفيق الأعلى، بعد أن أوصى خلفه بنذب الناس مع المثنى.

وكان أول من انتدب أبو عبيد مسعود الثقفي، الذي لحق في جنده بالمشي، حين كان أهل فارس قد قضوا على خلافاتهم، ووضعوا الأمر في يد رستم. ففسد الدهاقين للثورة بالمسلمين، وجهز جيوشا هزمها المسلمون في النمارق وباقسيانا، وعاود رستم الكرة فجهز جيوشا التقت بالمسلمين في قس الناطف حيث حدثت كارثة الجسر وهزم المسلمون لأول مرة في الفتوح، وفر منهم إلى المدينة عدد كبير أحسن عمر استقبالهم، وأمدهم من روحه بما أعاد لهم الثقة بأنفسهم، وراح يندب الناس جاهدا، أو يستصلح بعض القبائل، كبجيلة، والأزد، وبنى كنانة. بينما كان المشي يستميل بعض نصارى بنى النمر والتقى بالفرس عند أليس وانتصر عليهم وانتهت الخلافات بين رستم والفيروزان فأرسلوا مهران في جند عظيم، ثار منه المسلمون لشهداء الجسر عند البويب وما لبثت الخلافات بين رستم والفيروزان أن عادت تفرق شمل الفرس، لكن أهل فارس ثاروا عليهما ولم تهدأ الثورة حتى نصب يزدجرد، وتوحدت صفوف الفرس لمواجهة العرب في وقعة فاصلة. وكانت القادسية التي تعد ملحمة المسلمين، لما كان فيها من بلاء عظيم وفداء صادق، وانتصر المسلمون فيها بفضل إيمانهم، وثبتت أقدامهم في العراق. وهزم المسلمون فل القادسية في بابل، ولم يبق أمامهم إلا المدائن فحازوها، كما حازوا قصور كسرى وأمواله وجواهره.

وبدأ المسلمون يفكرون في إسقاط فارس، فتم تمصير الكوفة والبصرة بعد أن لم يتلاءم المسلمون مع جو المدائن، فأخذت الفتوحات تترى بعد ذلك، حيث فتح أهل الكوفة الري وأذربيجان وأرمينية وطبرستان وجرجان، وفتح أهل البصرة الأهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجند يسابور.

وبسقوط المدائن انتهت المقاومة الفارسية الرسمية للمسلمين، ولكن بقاء الملك يزدجرد حيا كان رمزا يتجمع حوله الفرس من حين إلى حين، فطارده المسلمون في حلوان، وفي الري، وفي قرميسين، ثم في نهاوند حيث دارت معركة تقرر فيها مصير دولة الفرس نهائيا. وبعد فتح الفتوح لم يلق المسلمون كيذا، فقد راحوا ينطلقون في أطراف السواد، فحازوا تكريت، وماسبذان، وقرقسيا. وعقدت الوية المسلمين لإسقاط فارس. فاستطاع الأحنف بن قيس أن يسيطر على خراسان، وحاز عثمان بن أبي العاص

أصطخر، وسارية بن زئيم فسا ودراخرد. وسهيل بن عدى كرمان. والحكم بن عمرو مكران، حتى وصلوا إلى السند.

وتقدم المسلمون يطاردون يزدجرد حتى قتلوه في الري. وأمرهم عمر بالآلا يعبروا النهر فتوقفوا على مضض. وبهذا يكون فتح العراق وفارس قد تم في عهد أبي بكر وعمر، إذ اقتصر عهد عثمان على تأمين هذه الفتوح فحسب، ولم يفتح في عهده غير طبرستان، على يد سعيد بن العاص.

ثم رافقت المجاهدين في فتح الشام الذي اتجه إليه أبو بكر، استكمالاً لسياسة رسول الله ﷺ في تأمين التخوم العربية الشمالية. وقد اقترنت ظروف فتحه بحرب الردة أيضاً، فقد أرسل أبو بكر بخالد بن سعيد ليكون رداءً للمسلمين في تيماء، حيث اجتمع إليه بعض القبائل العربية. وكان العراق قد وقع في أيدي المسلمين، وفتح الله عليهم دومة الجندل، في الوقت الذي أرسل فيه خالد بن سعيد إلى أبي بكر يستأذنه في لقاء الروم، ويعد أن استشار أبو بكر أولى الرأي من المسلمين عقد العزم على فتح الشام، فكتب إلى أهل اليمن يستنفرهم، وإلى عماله يخبرهم بين العمالة والجهاد، وأرسل إلى خالد بأن يلقى الروم، وانتصر خالد على الروم وحلفائهم من العرب. وتقدم وأبو بكر يرمى إلى الشام بكل من يقدم عليه، فسير إلى خالد عكرمة والوليد بن عقبة، حيث التقى المسلمون بياهان، فخدعهم عن أنفسهم في مرج الصفير، ففر خالد، وانحاز عكرمة بالمسلمين، حيث لحق به الوليد. ولما بلغت الهزيمة أبا بكر احتاج للشام، فعقد ألوية أربعة لأبي عبيدة، وليزيد بن أبي سفيان، ولشرحبيل بن حسنة، ولعمرو بن العاص. وعين لكل منهم وجهته، والتقى الأمراء الأربعة بعد أن وكل الروم بكل منهم جيشاً، وخشوا أن يلقوا الروم على انتشار، وكان رأى الخليفة أن يجتمعوا.

وفي اليرموك التحق بهم خالد بن الوليد، حيث كان النصر في أول يوم تأمر فيه. وتقدم المسلمون يحاصرون (فحل) فلما استعصت عليهم قصدوا دمشق ففتحها الله عليهم، وعادوا ففتحوا (فحل) وسيروا كتية العراق بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص. كما سارت حملات لتطهير الأردن، ففتح شرحبيل وعمرو ييسان، وأبو الأعور السلمي طبرية. وصالحت أذرعات وعمان وجرش ومأرب وبصرى. وحاول الروم استعادة

دمشق فقضى خالد ويزيد على محاولتهم، وانطلق أبو عبيدة يطاردهم، وحاصر بعلبك، وانتهى إلى حمص، وكان هرقل قد فر منها إلى أنطاكية، وبعد حصار طويل سلمت المدينة وسلمت حماة واللاذقية بعد ذلك. وفتح خالد قنسرين، وسلمت حلب لأبي عبيدة، وسلمت أنطاكية بعد أن فر هرقل إلى الرها، وأقام فيها حامية، بعد أن أحمد عياض ثورتها. ولكي يتصل الشام بالعراق بدد أبو عبيدة شمل عرب الجزيرة، وفتح قورس، وفتح خالد مرعش، وكان يزيد قد فتح بيروت والشغور المجاورة. ويش هرقل، فترك الرها إلى القسطنطينية، حيث التحق به جبلة بن الأيهم بعد أن ارتد.

وبينما كان أبو عبيدة يجتاح الشام، كان عمرو وشرحبيل يواجهان الأرطوبون في فلسطين، حيث أرسلوا معاوية لفتح قيسارية، حتى لا يأتي المدد منها لأرطوبون. ووجهها علقمة بن حكيم ومسروق العكي إلى إيلياء، وأبا أيوب المالكي إلى الرملة، لتتبدد قوى الأرطوبون بين هذه المناطق. والتقى عمرو بالأرطوبون في أجنادين، حيث اندحر الروم وفروا إلى بيت المقدس.

ورأى عمرو أن يقطع عليهم خط الرجعة من ناحية البحر، فأرسل حملات فتحت رفح، وغزة، وسبسطية، ونابلس واللد، وعمواس، وبيت جبرين، ويافا. وحاصر عمرو بيت المقدس، وبعد استماتة المدينة في الدفاع طلبت الصلح، واشترطت حضور الخليفة، حتى يمكن للروم الانسحاب إلى مصر.

ولم يعترف الروم بضياع سلطانهم على الشام، ولم يأسوا، فحاولوا استعادتها، فرتبوا مع القبائل العربية في شمال الشام مؤامرة رافقت وصول حملة قسطنطين إلى أنطاكية، ووجد المسلمون سلطانهم على الشام مهددا بالضياع، واهتم الخليفة عمر بالأمر، فأمد أبا عبيدة، وأفلح المسلمون في عزل العرب عن الروم وانفردوا بهم، حيث لاقوهم درسا وأجأوهم إلى الانسحاب.

ولم يكف المسلمون يفرغون من الروم حتى حدث وباء الطاعون، وصادف ذلك مجاعة شبه الجزيرة. وأضر الطاعون بالمسلمين، فراح ضحيته خمسة وعشرون ألفا منهم. وكانت أقدام المسلمين قد ثبتت في الشام، ولكن حملة قسطنطين أكدت لهم أن بقاء مصر في يد الروم أمر لا محمد عقباه، ومن ثم راح عمرو بن العاص يلح على عمر في الجابية بفتح مصر.

وصادف فتح مصر ترددا من الخليفة بادئ الأمر، ولكن عمرا استطاع أن يقنع الخليفة بالكاسب التي يمكن أن تعود على المسلمين من جراء فتحها، وبسط له أمر الخلاف المذهبي بين الحكام والمحكومين، وما يعانیه المصريون من عسف الروم، وما يرزحون تحته من أعباء الفتن والضرائب والمكوس، والاضطهاد الديني الذي يلقاه المصريون اليعاقبة من محاولة هرقل فرض مذهبه الجديد، الذي ابتكره له سرجيوس، للتوفيق بين الملكانية واليعقوبية، فضلا عن الاضطهاد الاجتماعي والسياسي الذي يتعرض له المصريون، نتيجة للسيطرة الرومية على أمور المصريين جميعا.

وسار عمرو إلى مصر، حيث أدركه كتاب عمر الشهير بقرية من قرى العريش، فسار على بركة الله، واخترق رمال سيناء إلى العريش ففتحها ثم اتجه إلى الفرما فافتتحها، وكانت بمثابة مفتاح مصر. وبعد حرب دامت شهرا استولى على بليس، وهزم الروم بها هزيمة بالغة. ومضى عمرو حتى أتى أم دنين، وهي قرية على النيل شمالي حصن بابليون، وتعتبر مسلحة للحصن الذي لاذ به الروم، وتجهزوا لحرب فاصلة. وحاصر عمرو أم دنين، وأرسل يتعجل المدد فوصله في الوقت المناسب، حيث استطاع المسلمون فتح أم دنين، ومنها استقلوا سفنا كانت راسية بمرثها وعبروا النيل إلى الغرب، حيث انتظروا في الفيوم على حنا، وعادوا سراعا ليلتقوا بأمداد جديدة في هليوبوليس حيث عسكروا بعين شمس.

وخشى الروم أن يظن بهم المصريون الخور أمام المسلمين إذا ظلوا ملازمين لبابليون فخرجوا إلى المسلمين، وأقام لهم عمرو كمينين في طريقهم عصفا بهم. واحتل المسلمون حصن أم دنين كرة أخرى، وكان فل الروم قد لجأ إليه، وحاصر عمرو بابليون، وأرسل حامية استولت على إقليم الفيوم، وحامية أخرى استولت على إقليم المنوفية، والروم يفرون هلعا إلى الإسكندرية.

وحال ارتفاع النيل بين المسلمين والحصن، وتراشق الروم والمسلمون بالسهام والنجنيق، ولم يئس المسلمون بعد شهر فرأى المقوقس أن يصلحهم، ولم تجد المفاوضات، واقتتل الفريقان حتى ألقا المسلمون الروم إلى الصلح، وعلق نفاذه على موافقة هرقل، ولكن هرقل رفض وعزل المقوقس وعاد القتال بين الفريقين كرة أخرى

واستمر الحصار سبعة أشهر، حتى خشى عمرو أن يضيق جنده، فوهب الزبير نفسه وتصور الحصن ففتح الله عليهم، وانفتح الطريق أمام المسلمين إلى مصر السفلى. واستجاب القبط للمسلمين فعاونوهم في تمهيد طرقهم إلى الإسكندرية، على الرغم من فيضان المياه.

واستغرق مسير المسلمين إلى الإسكندرية اثنين وعشرين يوماً، اصطدم فيها المسلمون بالروم في ترنوط عند فرع رشيد، وعند الكوم وفي سنطيس، وانتصر المسلمون في هذه المصادمات. ثم التقوا مع الروم في وقعة الكريون، حيث اقتلوا عشرة أيام متصلة قتالا عنيفاً، إذ كانت الكريون آخر سلسلة من الحصون قبل الإسكندرية. وكانوا في الحقيقة يدافعون المسلمين عن التقدم إلى الإسكندرية، واستبلوا في الدفاع حتى صلى عمرو صلاة الخوف ونصر الله المسلمين.

وأبلى الإسكندرية في الدفاع أمام المسلمين، الذين لاقوا شدة من منجنيقاتها وحصاناتها. وتنبأ عمرو بطول الحصار، فأرسل حملات لتطهير الدلتا. وبرغم توقف الإمدادات وموت هرقل لم تئس الإسكندرية. وكان عمر في المدينة حنقاً لإبطاء الفتح، فأرسل كتاباً عنيفاً إلى عمرو قرأه في جنده، وعقد لواء الإسكندرية لعبادة ففتحها الله عليه. وأسرع المقوقس ليعقد الصلح مع عمرو.

وذهل المسلمون أمام روعة الإسكندرية وراحوا يستقرون بمصر، وابتنوا الفسطاط، ولكن الروم عادوا كرة أخرى كما فعلوا بالشام يحاولون استعادة مصر بحملة قادها مانويل، فاحتل الإسكندرية، وتقدم إلى الدلتا. وانتدب عثمان بن عفان عمراً رائد فتح مصر فأذاق الروم هزيمة منكرة في الإسكندرية، ثم هدم أسوارها، وارتدت الحملة خاسرة لكن الروم عادوا بعد ذلك يحاولون نفس المحاولة بعد تسع سنوات في مشروع قسطنز، لاستعادة مصر والشام، وأوقع العرب بهم، ولقيت فلولهم عاصفة أتت عليهم في البحر.

ولم يستطع المسلمون أن يتقدموا في بلاد النوبة بعدما لاقوا في المعركة التي قادها عقبة بن نافع - إذ رجع المسلمون وقد أصابت سهام القوم أحداقهم، فاتجهوا إلى

الغرب. وفتح عمرو بعد فتح الإسكندرية، برقة وطرابلس، ثم بعث بنافع ففتح زويلة، وأراد الانسحاب فأوقفه الخليفة، فاستدار يتوسع فى المناطق الداخلية فحاز فزان، وودان، وسبرت.

وفى عهد عثمان، استطاع عبدالله بن سعد بن أبى سرح - والى مصر - أن يهزم جرجير ويفتح أفريقية، ولكنه بعد حرب دامت شهورا يتركها عائدا إلى مصر، بعد أن بلغته أخبار حملة مانويل - على ما نظن - ولكن ما نلث حتى يتلأأ اسم عقبة بن نافع فى هذه المنطقة فيما بعد عصر الراشدين.

وقد تبين لى، أن تصنيف الجيوش والإمدادات التى فتحت هذه المناطق الشاسعة كان له أثر بعيد فى كثرة الشعر على السنة الفاتحين فى الميدان الشرقى، ذلك أن الجيوش التى وجهت إلى هذا الميدان كانت نزارية. فكثيرة المثنى كانت تضم قبائل بكر وإياد وتغلب والنمر. وكثيرة خالد كانت كثرتها من المهاجرين والأنصار، وفيها قوم من طيمى وجديلة. وانتدب أمراء الأربعة: حرملة، وسملى، والمثنى، ومذعورا، وكانوا فى ثمانية آلاف من ربيعة ومضر. وكانت كتيبة عياش من زبيعة ومضر أيضا.

وكان لواء أبى عبيد من الأنصار، ولحق به بعض المتطهرين، واستطاع المثنى أن يستميل نصارى بنى النمر، ثم كان جيش الثار مكونا من بجيلة، والأزد، وكنانة، فى سبعمائة، ولحق بهم نفر من الرباب، ونفر من بنى سعد، ومن خثعم، ومن بنى حنظلة، ومن بنى ضبة، وناس فى عبد قيس، والنمر، وتغلب.

وكان جيش سعد بن أبى وقاص إلى القادسية مكونا من ألف، من قيس عيلان، وألف وخمسمائة من بارق، وألع، وغامد، وألف من نخع. وأمه عمر فى الطريق بالفى اليمنى، وألفى نجدى من غطفان وسائر قيس، ولحق به ألف وسبعمائة من أهل اليمن. وتنام جيش القادسية بعد انضمام جند المثنى، وعدته عشرون ألفا، منهم ثمانية آلاف من ربيعة، وأربعة آلاف من حلفاء المثنى، وأربعة آلاف من جند أبى عبيد، وألفان من بجيلة، وألفان من طيمى، وستة آلاف من جند خالد الذين قدموا من اليرموك. فتنام جنده فى القادسية ستة وثلاثين ألفا، كثرتهم من عرب الشمال النزاريين.

ولما استوطن العرب الكوفة والبصرة ظهر في تخطيطها غلبة عرب الشمال على عرب الجنوب، مما كان له أكبر الأثر في كثرة الشعر على السنة الفاتحين، حتى ليخيل إلى الدارس أن الفاتحين جميعا كانوا شعراء دون استثناء، إذ أصبح الشعر أو كاد يكون حظا مشتركا بين جميع الفاتحين. فشكل شعر الفتح في الميدان الشرقي كثرة شعر الفتح، ثم راح يسجل أحداث الفتح وسيره خطوة خطوة، فلم يغادر معركة، ولم يترك صداما، ولم يقصر عن تسجيل حوادث الفتح جميعها، تصويرا شاملا ودقيقا، حتى ليمثل وثيقة تاريخية واجتماعية خطيرة في هذا الميدان.

والأمر يختلف في الشام، فلواء خالد بن سعيد كانت كثرته من قبائل العرب الضاربة في تخوم الشام، كقضاة، وكلب، وجهينة، وعذرة. وعندما استأذن في لقاء الروم راح أبو بكر يستنفر أهل اليمن فأجاب دعوته وجوه اليمن، كذى الكلاع في حمير، وقيس بن هيرة في مذحج، وجندب بن عمرو في الأزدي، وحابس بن سعد في طيء ورافق قدوم كتاب خالد قدوم عكرمة فيمن معه من تهامة وعمان والشحر والبحرين، فبعث بهم أبو بكر إلى خالد، واستنفر الخليفة عماله ليستنفروا من حولهم، فاستجاب لعمرو خلق كثير من عمان، واستجاب للوليد جموع من قضاة. وأمر أبو بكر يزيد بن أبي سفيان على ألف من أهل مكة، كما أمر أبا عبيدة على جند عظيم من المهاجرين والأنصار.

وكان جيش عمرو الذي فتح مصر من جند الشام. ويجمع المؤرخون على أنه كان يمينا من عك أو من عك وغافق، وانضم إليه بعض الأبناء وعرب سيناء القضاعيين، وقوم من بنى راشدة، وأناس من لخم. ولو رجعنا إلى تسمية القبائل في الخطط التي نزلوها في مصر لاتضح لنا أن كثرة هذه القبائل من عرب اليمن، الذين ظلوا غاليين على من سواهم من العرب، حتى ولاية عبدالعزيز بن مروان، الذي ضاق ببلد ليس فيه أحد من بنى أمه.

وكانت نتيجة غلبة اليمن على جند مصر والشام، أننا لا نكاد نجد في الشعر صورة كاملة للفتح في الشام كهذه التي رأيناها في العراق، فالشعر في الشام لم يستطع أن يصور جوانب الفتح تصويرا شاملا ولا دقيقا، بينما لا نكاد نجد في مصر شعرا على

الإطلاق، سوى ما كان من آثار الهذليين، وهى أبيات قليلة لأبى ذؤيب فى إفريقية، وقصيدة وحيدة لأبى العيال الهذلى، قالها فى حملة «قسطنز»، وقد لاحظت أن لكون المؤرخين ورواة الشعر عراقيين دخلا فى عدم الاهتمام بتدوين شعر مصر والشام والعناية به.

وبعد أن درست الشعر فى الفتوح على هذا النمط حاولت أن أتعرف على شعراء الفتوح الذين خلفوا لنا هذا الشعر. وإذا بالإسلام يغير مظاهر الحياة العربية جميعها، ومنها الشعر، فيحدد له قيما تتفق وتعاليمه، فإذا بنفر من الشعراء يقوم بها خير قيام، وإذا بنفر آخر لا يستطيع أن يواكب هذه القيم وتلك المهام، فيخفت صوتهم إلى حين. ويعلو صوت القرآن، إذ يجد فيه المسلمون بغيتهم. وعندما يتدفق المجاهدون إلى الفتوح تذكو جذوة الشعر العربية وتنطلق ألسنة الشعراء بما حبس فى نفوسهم زما، عندما يقفون مواقف قريبة من مواقفهم القديمة مع فارق الهدف. وتفتح الفتوح أمامهم آفاقا واسعة، وتمدهم بتجارب كثيرة وحافلة بألوان من العواطف والمشاعر، كأنما أطلقت عقدة ألسنتهم، وأسعفتهم التجربة الشعرية الضخمة، فشارك فى الفتوح شعراء ناضجون، كأبى محجن الثقفى، وعبدة بن الطبيب، وربيعة بن مرقوم الضبى، وعمرو بن معديكرب الزبيدى.

وشعر هؤلاء يتميز عن شعر غيرهم بأصالته ونضجه، وغلبة الفخر الفردى على الفخر بجماعة المسلمين، كصدى لإحساسهم القوى بأنفسهم. وللأسف لا يمثل شعر هؤلاء الشعراء إلا قدرا قليلا جدا من شعر الفتوح، برغم طول القصائد التى تروى لهم فى الفتوح، كاللامية المنسوبة لعبدة، واللامية الأخرى المنسوبة لربيعة بن مرقوم الضبى.

وقد تبين لى أن هاتين القصيدتين وغيرهما من شعر القدماء قد استغرق نظمهما عصرين مختلفين، بمعنى أن أبياتا قليلة تتحدث عن الفتوح فى القصيدة لا تبرر القصيدة كلها، التى يتحدث الشاعر فيها عن أشياء حظرها الإسلام، كالخمر واللهمو والعبث بالنساء والطرب والغزل الحسى. واستتجت من ثم أن تكون أبيات الفتح قد ضمت إلى القصيدة الجاهلية فيما بعد الفتوح. وأكد هذا، اختلاف شعر الفتح فى شكله وفى مضمونه عن شكل أمثال هاتين القصيدتين، وما هو بين من اختلاف فى الصياغة بين

الآيات الإسلامية والقصيدة برمتها، حتى لتبدو هذه الآيات غريبة في مكانها من القصيدة، كما أكد ذلك ما هو جلي من خلاف بين القصيدة، وما هو ثابت من شعر إسلامي، منسوب للشاعر في المضمون والصياغة.

والمزج الذي حدث في شعر هذين الشعارين بين الإسلامى منه والجاهلى حدث في أخبار ابن محجن الثقفى، إذ حاولت الروايات - بتأثير النزعات الشعبية - رسم صورة مغربة للشاعر الفارس، مزجت فيها أخبارا بأخبار، وأولت أحداث حياته فى الفتوح تأويلات تخدم هذه الصورة المغرية.

وقد يبدو جلياً أن هؤلاء الشعراء القدامى لا يتسع تأثير الإسلام عندهم، على حين لا نجد لغيرهم شعراً على الإطلاق.

وإلى جانب هذا الجيل القديم من الشعراء نبت جيل آخر فى حقل الفتوح، وهو جيل يختلف عن سبقة من الشعراء فى حظه من النضج، ومدى إسهامه فى التعبير عن أحداث الفتح ومشاعره، وكثرة الشعر الذى انطلق على ألسنتهم، حتى ليخيل إلى الدارس أن الفاتحين جميعاً استحالوا شعراء فى الفتوح.

وهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح ينقسمون فى تصورنا إلى قسمين قسم مغمور كان له كلف بالشعر القديم وإن لم يعرف به، أو يدع له ذكر، بدليل هذا النضج الذى نجده فى شعرهم، وهذا الإنكار الذى نجده لأسمائهم وحياتهم فى تاريخ الأدب، لانعدام رصيدهم الفنى قبل الفتح. ورغم هذا فإن دورهم هو الدور الرئيسى فى التعبير عن أحداث هذه التجربة.

والقسم الثانى - من هؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح - يشكل ظاهرة جديدة بالنظر، إذ لم يكن منهم أحد يرتبط ارتباطاً ما بالشعر، وكانت أول علاقتهم به يوم أن حملوا السلاح وخاضوا المعارك فإذا بأنفسهم تبحر بالشعر فينطلق البيت أو البيتان، تنفيصاً خالصاً.

وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين، وشعرهم ليس إلا استجابة حرة لتجاربيهم ومشاعريهم، ولكثرتهم وتشابه ظروفهم اختلط شعرهم فيما عدا من كان منهم قائداً أو أميراً، فحافظت شهرته الحربية على شعره.

ومن الشعراء القدامى أخذت أمموزجا، عمرو بن معديكرب الزبيدي الشاعر الفارس الشهير، فإذا حياته الجاهلية تمثل شعره الجاهلي تمثيلا صحيحا، وشعره يدل على حياته دلالة واضحة، أما حياته في الإسلام فلا يكاد شعره في الفتوح يحدد جوانبها أيما تحديد. ويلاحظ الدارس نفس الملاحظة، التي يمكن ملاحظتها في شعر عبدة وربيعة. كما يلاحظ أن شعره لم يتأثر تأثرا ما بالإسلام، ولم يكتسب خصائص إسلامية من واقع الحياة التي عاشها في الفتوح. فإن شعره القليل الذي خلفته الفتوح لا يكاد يفترق في شيء عن شعره الجاهلي، وإن مال إلى التقريرية، ولكنّه احتفظ بخصائص قديمة له كحرارة التعبير، ولا يخرج الأمر عنده عن استبداله أيما إسلامية بأيام جاهلية.

ويتضح ما بين هذا الجيل القديم والجيل الجديد من الشعراء الذين أسهموا في التعبير عن حركة الفتوح حينما يستعرض الدارس أمموزجا للشعراء الذين نضجوا في أثناء الفتوح، كالقعقاع بن عمرو التميمي، فحياته في الفتوح واضحة في شعره وضوحا كبيرا، ومفصلة فيه تفصيلا دقيقا، إذ هو فتى أشربت روحه الإسلام، وباع حياته خالصة في سبيل الجهاد، واستمات في نصرة الدين يزجو به وجه الله فحسب، في حين رأينا عمرا يعني أن يحافظ على مجد قديم، وشجاعة سارت بذكرها الركبان في الجاهلية. ولهذا فإن شعر القعقاع مرآة لحياته الباسلة في سبيل الله، كما أنه مرآة للفتوح بأسرها. ومن ثم يمكن أن يكون شاعر الفتوح بلا منازع، إذ تتمثل فيه كل خصائص شعراء الفتوح، ويجمع شعره كل طوابع شعر الفتوح.

فإذا ما أراد الباحث بعد هذا أن يتبين ماهية هذا الشعر ومقوماته وطوابعه فإنه يتبين قبل كل هذا خطر شعر الفتوح، ودوره في نجاح هذه الفتوح، مما يكشف عن القيمة الفاعلة للأدب في صنع الحياة، وما كان من استيعابه للطاقت النفسية التي أضرمت في نفوس المجاهدين.

وهذا الشعر ينقسم إلى لونين من حيث شكله هما: القصيد والرجز الذي انفك عن دوره القديم كوزن من أوزان الشعر، له مهمة خاصة في الحداء والحروب والمفاخرة، إلى أن صار قالبا من قوالب التعبير الفني كالقصيد سواء بسواء فقد كان أداة كثرة الشعراء المغمورين، الذين عبروا فيه عن أنفسهم تعبيراً بسيطاً، يتناسب ومدى النضج الذي يتمتع

به شعرهم . وكان أيضا قالبا اتسع لموضوعات القصيد، نتيجة لاستخدامه على هذه الصورة، فقسام القصيد ألوانه وموضوعاته، إلى جانب قيامه بدور الطبول التي تفرع لتحميمس الجند، وإشعال أوار الحروب. وقد فسح للرجز أن يشارك القصيد في موضوعاته، نتيجة لما أصاب القصيد من انكماش فى شكله، لظروف القتال واضطرابها وقلقها ولما حظره الإسلام من الغزل وغير ذلك مما يجافى طبيعة الظروف الجادة فى المعارك. فاستحال القصيد إلى مقطعات قريبة فى شكلها من الرجز، وتخفف القصيد من المقدمات والغزل وما إلى ذلك من التقاليد الفنية القديمة، وأصبحت مقطوعات القصيد تشمل على غرض واحد، ومستقل كالرجز سواء بسواء.

ومن بين الموضوعات التي جال فيها شعر الفتح موضوعات قديمة فى الشعر العربى، كالفخر والثناء، ولكننا لمجدهما يتطوران فى شعر الفتح، إذ يتطور الفخر القبلى الذى يقوم على المفاخرة بالأحساب والعصبيات والنعرات إلى شعر يفخر فيه المجاهد ببلائه وبطولته فى سبيل فكرة الجهاد من أجل العقيدة التي يؤمن بها، ويتعدى ذلك إلى استشعار الشاعر وجدانا جماعيا للمسلمين يصدر عنه، سواء أتغنى به أم تغنى بفرديته كعضو فى إطاره.

وتشيع فى هذا الشعر معانى الفداء والتضحية والإيمان بنصر الله، كما يشيع فيه إخلاص للفكرة الإسلامية، ورفض لما عداها من زخرف الدنيا. وقد قاسم الرجز القصيد فى هذه المعانى فى حين تطور الرثاء من الإشادة بالفقيد - وما كان يتمتع به من صفات المروءة الجاهلية - إلى أن يصبح تعبيرا عن الإيمان المؤكد بالموت ووجوبه، والتسليم به، والصبر عليه، واستشعار ما أعد الله للشهداء، فضلا عن الإشادة ببطولة الشهيد، وما قدم فى سبيل الله من تضحيات، إشادة تتصل بالفخر والجهاد اتصالا وثيقا. ويرغم قلة الرجز الذى ذهب هذا المذهب فإنه يعبر عن مدى التطور الذى أصاب الرجز الجاهلى فى رثاء المحاربين، وقد استجد فى الرثاء لون طريف صورته الشعر والرجز، ذلك أن بعض المجاهدين راحوا يرثون ما كانوا يفقدون من أعضاء أجسادهم وأشلائهم، رثاء يمتلئ بصور من البسالة والاستهانة بما فقدوا فى سبيل الفكرة، أمام ما أفقدت العدو من أرواح وأعضاء ولا يستشعر الرثاء أى شعور بالحسرة، إلا بسبب حرمانه من الجهاد. بسبب ما فقد من أعضاء جسده.

ويرى الدارس لشعر الفتوح موضوعات جديدة لم يعرفها الشعر العربي من قبل، نتيجة لتزوح المجاهدين إلى بيئات بعيدة ومختلفة عن مواطنهم، فكان أن أحسوا بالغرابة، وامتلات صدورهم بشجى الابتعاد عن مواطنهم وأحبائهم، وراحوا يبكون غربتهم وحرمانهم في حنين شجى حزين، يذكرنا ببيكاء الأطلال في الشعر الجاهلي. كما راحوا يعبرون عن مشاعرهم بإزاء البيئات الجديدة، ويصورون مدى التزاوج بين نفوسهم وبينها. وكثر الشعر الذي يتشوق فيه المحاربون إلى نجد، ويذمون فيه مواطنهم الجديدة. وهرب بعضهم إلى الطبيعة فبها شجوه في شعر رائق، ولم يستطع الرجز بما أوتى من نغم جهورى أن يعبر عن مثل هذه المشاعر المهموسة.

وحظيت المشاهد الغريبة التي عاينها الفاتحون بالتفاتهم فصوروها، وصوروا انطباعاتهم بإزائها، فوصفوا الطبيعة في بيئاتهم الجديدة، ويردها وتلجها. ووصفوا القبلة وغرابتها وشدة قتالها. ووصفوا ما عانوا من الأوبئة والحشرات، وما تعرضوا له من عبور الماء وركوب البحر، وما ذاقوا من الأطعمة والأشربة الفارسية، وما أكل إليهم من الفئء والمغانم، وما رأوا من ألوان الحضارة الفارسية المختلفة في الملابس والحديث، وما انزلق إليه بعضهم من العبث والسماع والطرب والخمر. وواكب الرجز شعر القصيد في هذه الموضوعات جميعها.

وانطبع شعر الفتوح في مجموعه بطوايع إسلامية واضحة في شكله ومضمونه. ومن أبرز هذه الطوايع، صدور الشعر عن روح الجماعة الإسلامية ووجدانها الجماعى، الذى استوعب النزعات القومية المحلية، والعصبيات القبلية، فطواها وصاغها صياغة جديدة فى إطار جديد، كما صدر عن تلك المثل الإسلامية الرفيعة وعنى بتمثلها، وصور تطبيق النظم الإسلامية فى الأمصار الجديدة.

وانطبع هذا الشعر أيضا بما انطبعت به النفوس المؤمنة من المشاعر والحرص على الفوز بما وعد، والاستسلام لقضائه. وما بثه الإسلام فى العرب من ثقة بأنفسهم واعتزاز تضاءلت أمامه هيبة الدول التى تسلطت عليهم بالأمس فأدالوها وسادوها، بما دفعه الإسلام فيهم من روح جديدة، أكدت لهم أن الله اصطفاهم لهداية العالمين إلى ما هداهم به.

واصطبغ الشعر كذلك فى ألوانه جميعا بصيغ إسلامى خالص، فى معانيه وتعبيراته وألفاظه، تجلت بصورة أوضح فيما حاوله بعض الشعراء الذين تعمقوا روح الإسلام من محاكاة المعانى الإسلامية، والتعاليم الدينية، وآيات الكتاب الحكيم.

واتسم الشعر أيضا بعدة طوابع شعبية فى نصوصه ورواياته، وما دار حول شعرائه من أفاصيص، بفعل اهتمامات أفراد الشعب فى المعارك وعلى أطرافها، وتغنيهم بانتصارات المسلمين، ورغبتهم فى تصويرها تصويرا معجبا، يرضى نوازع الزهو فيهم، وتملق القصاص فيهم هذه المنازع وأرضوها بما زادوه فى قصص الفتوح، وما نسبوه إلى فرسانها المشهورين من أفعال، تحولت بسيرهم من الواقع إلى ما يكاد يشبه الأساطير، ونسبته إلى من لم تكن له شهرة بالشعر منهم. وللأسف ضاع جل هذا الشعر ولم يبق منه شيء وإن وجدنا أثر هذه التزييدات واضحا فى سير الفرسان ذاتها.

وتخلف عن هذه المعارك بعض أبيات من الشعر، قالتها العصبيات إبان المواقع الفاصلة، من أجل المفارقة بين أحياء العرب، كالذى حدث فى القادسية، من نسبة الشعر إلى الجن، وهذا فى حد ذاته يفسر اتجاهها شعبيا إلى إظهار الاهتمام البالغ بهذه الواقعة، ويكشف فى نفس الوقت عن ثقافة العامة، وإيمانها بالتوارثات الشعبية.

ويمثل الشعر الذى لا نعرف له قائلا قدرا كبيرا من شعر الفتوح، يعالج كل موضوعات هذا الشعر، وينطبع هذا القدر بطوابع شعبية تتجلى فى تغنيه بروح الجماعة، وفى تغنى الناس به ترنما، وما يبدو فيه من بساطة وسهولة وقرب من الحديث العادى، الذى يدل على أنه شعر عامة الجنود. كما يبدو من كثرة الرجز فيه وفى لهلته وضعفه.

ولا ريب أن قيمة شعر الفتوح تنبع من كونه المتنفس الشعرى الوحيد فى عصر صدر الإسلام، والتعبير الأدبى الوحيد أيضا عن الحياة الإسلامية فى هذا العصر، بتصويره لتلك الآثار التى تركها الإسلام فى نفسية العربى، والتغيير الهائل الذى أحدثته فى نفسه وفى أعماله، كما أنه يرسم صورة رائعة لفعل هذه الآثار فى الانطلاقة المذهلة، التى تمثلت فى الفتوحات الإسلامية. ويرسم صوراً رائعة للفروسية العريية فى ملحمتها الخالدة.

وهو فضلا عن ذلك يمثل سجلا وافيا، ووثيقة تاريخية أو اجتماعية، وشعورية لهذه الملحمة، تصحح الحوادث التاريخية، وتعطينا صورة لحياة الفاتحين ومشاعرهم.

وبرغم قصر المدة التي تمت فيها هذه الوثبة أفلح الشعر في إعطائنا ملامح بارزة للمناطق التي افتتحها المسلمون، كما ألقى إلينا ببعض الضوء على مدى التزاوج الذي بدأ يحدث بين النفوس العربية وبيئاتها الجديدة، والانعكاسات الشعورية المتولدة عن هذا الاحتكاك البكر بين العرب ومواليهم، وسجل عواطف المحاربين بعيدا عن مواطنهم وحينهم إليها.

ويعتبر هذا الشعر — الذي هاجر في صدور المحاربين وعلى ألسنتهم إلى هذه المناطق على تفاوت في غنائه وكثرته — البذرة الأولى للشعر العربي في هذه الأمصار الجديدة، التي وسمتها بسمات أدبية معينة، فضلا عن تصوير هذا الشعر لحياة المسلمين في الأمصار الجديدة، وما اكتنف حياتهم من جراء معيشتهم في مجتمعات إسلامية جديدة.

وإذا كانت الفتوح قد مثلت أكبر هدف شغل المسلمين في فترة بعينها صورها هذا الشعر الإسلامي — فإن قيمة شعر الفتوح لا تكمن في مجرد مواكبته لحوادث الفتح فحسب، بل تكمن في تصوير حياة المسلمين جميعا في هذه الفترة. ومن ثم يكون شعر الفتح مثلا لعصر صدر الإسلام تمثيلا كاملا. ويكتسب من هذه القيمة قيمة تاريخية واجتماعية، لعصر من العصور الأدبية، طالما مر الباحثون به مرور الكرام، ونسبوا إليه همود حركة الشعر وجمودها.

ويصبح من ثم أدق نموذج للشعر الإسلامي، والمجال الطبيعي لاستجلاء آثار الإسلام في الشعر العربي، لمواكبته قيمه ومثله وحياته، وتطوره مع أهدافه وغاياته بتصويره لأضخم جوانبه، وكانت النتيجة اكتسابه طوابع فنية خاصة به.

وهذه الطوابع الفنية التي طبعت شعر الفتح استمدها من الإطار الفكري الإسلامي، من ظروف حركة الفتح التي صدر في خلالها، ومن التقاليد الفنية الموروثة للشعر العربي، على اختلاف في مدى هذه المصادر وفعاليتها.

فطابع الالتزام الذى طبع الشعر نتيجة لالتزامه بغايات ومبادئ يعمل فى خدمتها أداة اجتماعية وفكرية طابع مستمد من الفكر الإسلامى، ومن جدية الظروف التى صدر فيها وسموها. وطابع القصر والإيجاز الذى اتسمت به قصائد شعر الفتح مستمد من ظروف القلق والاضطراب والحركة فى الميادين، ومن روح الإسلام التى تكره الشرثرة والتفيقه، ومن الموروثات القديمة التى قررها الذوق العربى من قديم، فى كراهة الإسهاب والإطالة، وإعجابه بالإيجاز البليغ.

أما العفوية التى وسمت شعر الفتح نتيجة لظروف القتال، وتعبير المجاهدين عن أنفسهم تعبيراً قريباً من التنفيس الشافى لأرواحهم من مخزون الطاقات النفسية، وتطهيرها فى سرعة وحرارة، ودون تعمل أو تمهل تستمد أيضاً من روح الإسلام، التى تكره التفرع والالتواء، وتتجنب العمل وتقصد إلى السماحة والطبع والصدق.

## ٢- شمار البحث

ولست أزعم أنى قد أتيت بجديد خارق فى هذا البحث. وكل ما فى الأمر أنه تأتى لى أن أنعم النظر فى هذا الشعر فوجدته يستطيع النهوض أمام الشعر العربى الذى نعرف فى كل العصور الأدبية، وأنه يمكنه أن يكون مرآة لهذه الفترة الجلييلة من تاريخ الإسلام والمسلمين.

إذ يستطيع أن يعين الباحثين فى تاريخ الفتوح الإسلامية إعانة ملحوظة، فى تصحيحه لحوادث التاريخ التى سجلها. كما يعين الباحثين فى المجتمع الإسلامى فى هذه الحقبة على الكشف عن النظم الاجتماعية والإدارية، والعلاقات الاجتماعية بين المسلمين، وبينهم وبين حكامهم وأمرائهم، كما يصور الانطباعات النفسية للفاتحين، وصدى هذه الأحداث على نفوسهم.

ويستطيع شعر الفتح فضلاً عن ذلك أن يكشف بطريق إيجابى أو سلبى عن غزارة الإنتاج الشعرى فى بيئات إسلامية بعينها، وقلته فى بيئات أخرى، تدفع الباحث إلى تعقب مواكب الفاتحين إلى هذه البيئات، ليحقق هذه الحقائق التى صار لها فى دراستنا الأدبية وزن ملحوظ، ليصدر مثل هذه الأحكام مطمئناً إلى صحتها، بعد التحقق من تصنيف الفاتحين فى هجرتهم إلى هذه البيئات.

ويغرى شعر الفتوح بدراسة الشعراء الذين أسهموا فى تصوير الفتوح دراسة تبين مدى تأثيرهم بالمثل الإسلامية، والأحداث الخطيرة التى تعرضوا لها فى ظلال الإسلام. ويستطيع الباحث بهذا وبمقارنتهم بشعراء آخرين ألهمتهم هذه الأحداث أن يتبين عمق هذه الآثار فى نفوس جيل من المسلمين تعمق الإسلام، وجيل آخر من المخضرمين لم يمسه من آثار الفكرة الجديدة شىء على الإطلاق. وعلى حين انطلقت السنة الفاتحين المسلمين بالشعر فذكت جذوته بعد خمود، نرى الشعراء القدامى لا يستطيعون الخروج من إجفالهم، رغم ما حاولته الروايات من تشويه هذه الحقيقة، وتقوية دورهم فى الفتوح، بإضافة شعرهم الجاهلى إلى شعرهم الإسلامى القليل.

وبرغم هذا يستطيع الشعراء المغمورون أن يرسموا جوانب هذه الحركة بصورة لافتة، ويمثل شعرهم جميعا تعبيراً دقيقاً عن الحياة الإسلامية فى هذه الفترة التى اتسمت بالفتوح والانتشار والحركة. وهو لا يقصر عن تصويرها أدنى تقصير، وكأنه يثبت بهذا خطأ الفكرة التى تذهب إلى أن العرب لهما بالفتوح عن الشعر.

وهو - لتصوير جوانب الحياة ومثلها وقيمها - يعتبر مرآة للعصر الإسلامى، بيتغى فيه تبيين صورة الحياة الإسلامية وآثار الإسلام فى النفسية العربية ويأخذ بهذه القيمة مكانه بين عصور الأدب المختلفة، كمجاز للشعر العربى من العصر الجاهلى إلى العصر الأموى، بما اكتسب من طابع إسلامية، تطورت فيه تطوراً محدوداً، وامتد تطورها من بعد، كما هو واضح فى شعر الجهاد والثناء، وما يسمهما من طابع إسلامية. فكأنه خلص الشعر من قيود الجاهلية، وأسلمه إلى العصر الأموى، ليتطور فيه تطوراً ملحوظاً ورغم هذا فقد حقق تطورات جديدة بالتدبير، كما هو واضح فى شعر رثاء الأشلاء. واكتسب موضوعات جديدة لم تعرف فى الأدب العربى القديم، كسفر الحنين الذى ورث بكاء الأطلال إلى حين، وأورثه لشعر الغزل العذرى فيما بعد، وكشعر المشاهد الغريبة التى سجلت فى الأدب لأول مرة.

كما يعتبر التطور بوزن الرجز إلى أن يكون قالباً شعرياً مهيئاً لما كان بعد من تحديد لهذا القالب عند الرجاز الأمويين والعناية به. وفضلاً عن تصوير هذا الشعر للطابع الإسلامية التى انطبعت بها حياة الناس ومشاعرهم فإنه يظهر فيه آثار الاهتمامات الشعبية، وما شاع حوله من أقاصيص الفرسان الشعراء.

وفضلا عن هذا اكتسب الشعر لنفسه طوابع فنية أتمم بها، تقربه إلى الناس،  
وتجعل في قراءته لذة فنية طبيعية، لا تتيسر لشعر كثير مثله.

وفي هذه الخاتمة التي أسأل الله حسنها أرى أن هذا الموضوع يستحق أن يستكمل  
بحثا في العصور الإسلامية التالية؛ ليتم تصوير الملحمة الإسلامية الكبيرة. وبالله التوفيق.



## ثبت المصادر

- ١ - ابن الأثير (عز الدين)، الكامل فى التاريخ ليدن/ ١٨٦٧هـ.
- ٢ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة (جمعية المعارف بالقاهرة سنة ١٢٨٦هـ).
- ٣ - ابن الأثير (ضياء الدين) - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، نهضة مصر ١٩٥٩.
- ٤ - إبراهيم العدوى، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٥١.
- ٥ - أحمد أمين، ضحى الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩.
- ٦ - أحمد أمين، فجر الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩.
- ٧ - الأصفهاني (أبو الفرج)، الأغاني، ط، الساسى دار الكتب التقدم ١٣٢٢هـ.
- ٨ - ابن أبى أصيبعة، طبقات الأطباء، الطبعة الذهبية ١٨٨٢.
- ٩ - أوليرى، بلاد العرب قبل الإسلام، لندن/ ١٩٢٧.
- ١٠ - بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة: أبو حديد/ لجنة التأليف والترجمة دار الكتب ١٩٣٣.
- ١١ - بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة/ نبيه فارس البعلبكي/ دار العلم للملايين ١٩٤٩.
- ١٢ - البستاني، ترجمة إلياذة هوميروس، طبعة الهلال مصر سنة ١٩٠٤.
- ١٣ - البلاذرى، فتوح البلدان، ليدن/ ١٨٦٦م.
- ١٤ - البغدادي (عبد القادر)، خزانة الأدب، ط بولاق ١٢٩٩هـ.
- ١٥ - التغربردى (أبو المحاسن)، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب ١٩٣٨م.
- ١٦ - الجاحظ، الحيوان، ط. الحلبى.

- ١٧- ابن حجر العسقلانى -٨٥٢هـ، الإصابة فى تمييز الصحابة، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٣هـ.
- ١٨- ابن حوقل، المسالك والممالك، ليدن/ ١٨٧٣م.
- ١٩- حسن إبراهيم حسن، عمرو بن العاص، مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩٢٦.
- ٢٠- حسين نصار، مصر العربية، الجمعية الأدبية ١٩٦١.
- ٢١- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق/ ١٢٨٤هـ.
- ٢٢- ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الأدبية بيروت سنة ١٨٨٦.
- ٢٣- ابن دقماق المصرى، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، بولاق/ ١٣١٤هـ.
- ٢٤- الدينورى (أبو حنيفة)، الأخبار الطوال، وزارة الثقافة/ ١٩٦٠.
- ٢٥- ابن رشيقي القيروانى، العمدة، مطبعة السعادة ١٩٠٧.
- ٢٦- ابن زينى دحلان، الفتوحات الإسلامية، المطبعة الشرقية بالخرنفش/ ١٣٢٣هـ.
- ٢٧- زكى المحاسنى، شعر الحرب فى أدب العرب، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٤٧.
- ٢٨- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ليدن/ ١٣٢٢هـ.
- ٢٩- ابن سلام، طبقات الشعراء (الفحول)، المعارف/ ١٩٥٢م.
- ٣٠- سيدة إسماعيل الكاشف، مصر فى فجر الإسلام، دار الفكر العربى ١٩٤٧م.
- ٣١- السيوطى (جلال الدين)، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية.
- ٣٢- شكرى فيصل، حركة الفتح الإسلامى، دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٢م.
- ٣٣- شكرى فيصل، المجتمعات الإسلامية، دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٢م.
- ٣٤- شوقى ضيف، التطور والتجديد فى الشعر الأموى، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢م.
- ٣٥- شهاب الدين الأبشيهى، المستطرف فى كل فن مستظرف، طبع حسين حسنى سنة ١٢٩٢هـ.

- ٣٦- الشهرستاني، الملل والنحل بهامش الفصل فى الملل والأهواء لابن حزم، الطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠هـ.
- ٣٧- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ليدن/ ١٨٩٣م.
- ٣٨- طه حسين، فى الأدب الجاهلى، دار المعارف ١٩٥٤.
- ٣٩- طه حسين، حديث الأربعة، دار المعارف ١٩٥٤.
- ٤٠- ابن عبد البر النمري القرطبي، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، حيدرآباد ١٣١٨هـ.
- ٤١- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تورى ليدن/ ١٩٢٠ والجزء الخاص بمصر (ماسيه) ١٩١٤.
- ٤٢- عبد الرازق حميدة الأدب العربى فى مصر، لجنة البيان العربى سنة ١٩٥١.
- ٤٣- ابن عبد ربه، العقد الفريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢م.
- ٤٤- ابن عساكر، التاريخ الكبير، ط. روضة الشام/ ١٣٢٩هـ.
- ٤٥- العقاد، (عباس العقاد) أعلام الإسلام.
- ٤٦- عمر الدسوقي، الفتوة عند العرب، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٩.
- ٤٧- فكا، دائرة المعارف الإسلامية، فصل (أسامة).
- ٤٨- فيليب حتى، تاريخ العرب، بيروت دار الكشاف ١٩٥١م.
- ٤٩- القالى (أبو على)، ذيل الأمالى، دار الكتب ١٩٢٦.
- ٥٠- ابن قتيبة الشعر والشعراء، إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٤هـ.
- ٥١- القفطى، أخبار الحكماء، طبع السعادة بمصر، تاريخ الحكماء، طبع أوربا.
- ٥٢- القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية ١٩١٩م.
- ٥٣- الكندى، الولاة والقضاء، الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٠٨.
- ٥٤- ماسينيون، خطط الكوفة، ترجمة المصعبى.

- ٥٥- المبرد، الكامل التقدّم / ١٣٢٣هـ.
- ٥٦- محمد أحمد حسونة، الجغرافيا التاريخية الإسلامية، مصر ١٩٥٠م.
- ٥٧- محمد حسين هيكل، حياة محمد، دار القلم ١٩٦٠.
- ٥٨- محمد حسين هيكل، الصديق أبو بكر، مطبعة مصر ١٩٤٢م.
- ٥٩- محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، مطبعة مصر ١٩٤٥م.
- ٦٠- محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩.
- ٦١- المسعودي - ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجواهر، مطبعة الشرق الإسلامية بالقاهرة.
- ٦٢- الفضل الضبي، المفضليات، الآباء اليسوعيين ١٩٢٠ ودار المعارف.
- ٦٣- المقرئزي، المواعظ والاعتبار، بولاق ١٢٧٠هـ.
- ٦٤- ملن، تاريخ مصر تحت حكم الرومان، ط سنة ١٩١٣.
- ٦٥- نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، أحياء الكتب العربية.
- ٦٦- نولدكه أمراء غسان، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٣.
- ٦٧- ابن هشام، التيجاني في ملوك حمير السيرة، ط حيدر آباد.
- ٦٨- ابن هشام، السيرة، ط مصطفى الحلبي ١٣٢٩هـ.
- ٦٩- الواقدي، فتوح الشام، مصر ١٣٠٢هـ.
- ٧٠- ياقوت الحموي (شهاب الدين)، معجم البلدان، ليزج / ١٨٦٦م.
- ٧١- ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية.
- ٧٢- يوليوس قلهوزن، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة دكتور يوسف العشي، مطبعة الجامعة السورية، دمشق سنة ١٩٥٦.